

القدس

مدينة الله ... ؟ أم مدينة داود ... !

بقلم الأستاذ
الدكتور حسن ظاظا
كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

مطبعة جامعة الاسكندرية
١٩٧٠

القـــدس

مدينة الله ... ؟ أم مدينة داود ... !

بقلم الأستاذ
الدكتور حسن ظاظا
كلية الآداب — جامعة الاسكندرية

مطبعة جامعة الاسكندرية
١٩٧٠

من الحاضر إلى الماضى

لاسرائيل أسلوب لا يعوزه الدهاء فى السياسة التى تنتهجها فى مشكلة الشرق الأوسط ، وهو أسلوب تحاول به أن يطول بقاؤها بفلسطين ، فى عالم يتميز بأن عمر الاستعمار فيه قصير ، وحياته فى البلاد التى يتشبث بها رهيبة مرة لا راحة فيها ولا اطمئنان . وأسلوبها هذا مبنى على «التعقيد» ، والانحراف بالمسائل عن الطريق الواضحة المستقيمة باثارة مشاكل جانبية مفاجئة ، من الأفضل لدى قادة الصهيونية الا ترتبط بفن تنسيق العلاقات الدولية ، والدخول اليها من أبوابها الواسعة ، بقدر ما ترتبط بغيبيات مظلمة ، وأساطير متنكرة فى ثياب التاريخ ، و «ميتافيزيقيات» غير انسانية ، ان لم تنجح فى خداع العالم بصورة نهائية فانها ، على الأقل، تجره فى دوامتها السحرية مدة من الزمن تطول أو تقصر بحسب الظروف . واسرائيل تخترع هذه «العقد» وتفتعلها بتوقيت دقيق بحيث تتراكم وتتراكب حتى تصبح ملفات «مشكلة الشرق الأوسط » فى مكاتب هيئة الأمم المتحدة ، وأرشيفات وزارات الخارجية فى العالم أشبه بمجلدات التلمود ، التى لا تدعك تنفذ من اعتراض الا لتقع فى اشكال ، أو تنزلق فى شبهة ، أو تنساق إلى نقاش كلامى طويل ، ينتهى بأن تصرخ متسائلا وقد كادت اعصابك تنهار : والآن.. أين القول الفصل ؟.. اين الحلال والحرام ؟ وهيهات أن تجد جواباً ! وليس أشد ازعاجاً لكهنة السياسة الاسرائيلية فى قديم الزمان وحديثه من «القول الفصل» ، ومن الحل العادل المنطقى الانسانى المباشر ، وكلما ظهر فى طريقها من يكشف لولبيتها ، وتعقيدها هذا للبسيط من الأمور ، مما لا يدع لها مجالا للمغالطة والتهريج ، لجأت معه إلى الجريمة .. إلى القتل : هكذا كان موقفهم قديماً من نبيهم ارمياء ، ومن يوحنا المعمدان ، ومن عيسى المسيح ، وهكذا إلى أن نصل حديثاً إلى اغتيال اللورد موين وزير المستعمرات البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية ، والكونت برنادوت السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة ، وما لا يحصى غيرهم من ضحايا الظلاميات الاسرائيلية المطبقة .

وهناك «عقدة» ظل الاسرائيليون يدخرونها للوقت الذى يصل بهم الحرج فى ميدان السياسة الدولية إلى ذروته ، وهى القدس . فمنذ بدأ المشروع الصهيونى المعاصر نشاطه فى أواخر القرن الماضى ، والقائمون عليه يحتاطون جداً فى لمس هذه العقدة ، حتى اضطروا طوال مدة مديدة إلى أن يتزودوا لها بوجهين يقولان كلامين مختلفين بحسب المستمعين .

الوجه الأول هو الوجه اليهودى القح الذى يتكلم إلى اليهود الاقحاح فلا يترك قسما غليظاً ولا قولا معسولا فى الاستيلاء على القدس، و «تطهيرها» من الاسلام والمسيحية الا قاله ، ولا يكاد ينعقد اجتماع صهيونى كبير أو صغير ، من اللقاء العابر المرتجل فى بعض الأعياد أو المناسبات ، إلى إلى المؤتمرات الصهيونية العالمية ، حتى يطلق اسم «اورشليم» مرات ومرات ، وسط الحماس المتهوس الذى لا يعرف له رأساً من رجلين .. وأبسط ذلك وأقربه منالا هو الترنم بنص من المزامير (مزمور ١٣٧/ ٥ — ٦) يقول : «ان نسيتك يا أورشليم فلتنسنى يمينى . ليلتصق لسانى بحنكى ان لم أذكرك ، ان لم أرفع أورشليم على قمة ابتهاجى» ويقال ان تيودور هرتسل — زعيم الصهيونية الحديثة — كان قد وافق على اقتراح السياسى البريطانى «تشمبرلين» الكبير فى اعطاء اليهود وطناً قومياً فى أوغنده بوسط افريقيا ، ولكن غلاة الصهيونية ثاورا على زعيمهم ، واعتدوا على مساعده «ماكس نورداو» بالرصاص ، واتهموا «هرتسل» نفسه بالخيانة ، وعند اجتماع المؤتمر الصهيونى العالمى السادس بدأوا يهتفون ضده من القاعة حتى إذا ما بدأ ينشد «ان نسيتك ياأورشليم» .. نسوا هم كل شىء ، وصفا له الجو ، وسلمت له الزعامة ، بعد أن سلمت لهذه الجماعة الهستيرية « مدينة داود» .

وأما الوجه الثانى ، فتلتفت به الصهيونية إلى الأمم الأخرى ، تلتفت لتقول لهم كلاماً معسولا أيضاً عن «المدينة المتحف» ، «المدينة المقدسة» لكل الملل والأديان ، «مدينة الله» . وكانت اسرائيل بهذا الوجه تستجدى رضا الرأى العام المسيحى فى أوروبا وأمريكا ، وتخدر الرأى العام الاسلامى فى افريقيا وآسيا ، وتتهرب من نقمة العلمانية واللاعنصرية فى العالم أجمع .

وهكذا جعلوا عاصمتهم أولا «تل أبيب» لا «القدس» وقنعوا من ارضاء بسطاء اليهود فى العالم ببناء «اروشليم جديدة» على أطراف المدينة التاريخية تتكون من بضعة أحياء إلى الغرب والشمال أشهرها «رحبيا» و« محنى يهودا» و «كرم ابراهام» ثم أضافوا اليها أحياء عربية اغتصبوها بالارهاب مثل «البقعة» و «القطمون» و «بيت صفافا» وغيرها . وجعلوا فى حكومتهم وزارة خاصة اسمها «وزارة الشئون الدينية» ، ورضوا بأن تبقى المدينة القديمة «القدس الشريف» بالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وغيرهما من المعالم والمشاهد المسيحية والاسلامية المقدسة جزءاً من المملكة الأردنية يفصله عن اسرائيل سور معترف به كحدود دولية من هيئة الأمم المتحدة .

ثم خطت الصهيونية خطوتها الجريئة فى حرب يونيه ١٩٦٧ فأزالت هذا السور واحتلت القدس التاريخية ضمن ما احتلت – وما تزال – من الأراضى العربية داخل حدود الأردن وسوريا والجمهورية العربية المتحدة ، وتسرعت فأعلنت «توحيد القدس» أى ضم القدس الشرقية – وهى المدينة العربية التاريخية – إلى «أورشليم الجديدة» ، وادخالها فى مخطط «تهويد» معلوم مرسوم . ولكى يبتلع العالم كل هذه المغلطات دون صياح كثير قسم قادة الصهيونية أنفسهم إلى «جوقات» كل منها يتجه بصوته جهة خاصة يلقى فيها بالبيانات والتصريحات المناسبة : «بن جوريون» و «موسى ديان» وبقية «الكورس القومى» يعلنون انه لا اسرائيل بدون القدس التاريخية ، «مدينة داود» ، وأن الحائط الدولى الفاصل بين القدس القديمة شرقاً والجديدة غرباً كان وصمة فى جبين الشعب اليهودى ، وأن المدينة كلها يهودية مائة فى المائة بماضيها ولابد أن تصير كذلك فى مستقبلها . وفى نفس الوقت يقف فى الجهة الأخرى «الكورس الدبلوماسى» بقيادة «ابا ايبان» و «يجال آلون» ليؤكد أن القدس «مدينة الله» وأن المعالم المقدسة فيها لها حصانة سماوية لا يمكن المساس بها ، وأن المدينة المقدسة مفتوحة على مصراعيها للناس جميعاً من كل الملل والنحل وأنها ستظل كذلك .

وتترسب فى الرأى العام العالمى ، فى العقل الباطن للناس ، انطباعات هى وحدها التى أرادها اليهود ، أنهم أصحاب الحق الشرعى والتاريخى الأول فى هذه المدينة ، وانهم لا يتكلمون من مركز القوة فحسب ، بعد نكسة يونيه ١٩٦٧ ، بل من سجلات التاريخ أيضاً ، وكاد العالم أن يبتلع ما شاءت الصهيونية بدون صياح كثير .

ثم تشتد المقاومة الفلسطينية فى كل مكان ، وتصمد الأمم العربية الواقفة على خط المواجهة ، ويطول صمودها بما يخيب ظن اسرائيل ، بل أنها لا تكتفى بالدفاع المتكافىء عن مواقعها فتلقن القوات الاسرائيلية الضاربة ، كلما حدث اشتباك ، درساً فى ضرورة التروى والتفكير الطويل قبل الدخول فى اشتباكات أخرى ، وتخرج من جزع الهزيمة ومرارة الدفاع المستميت إلى امكانيات التخطيط للمستقبل ، ويبدأ ذلك بتنسيق كامل بين الجبهات الثلاث ، ثم بينها وبين قيادة الكفاح الفلسطينى المسلح ، على نحو يجعل الغلاة من قادة الصهيونية قلقين على المستقبل جداً . فالانتصار السهل فى معركة محلية خاطفة ، قد حل محله خطر الحرب الشاملة إذا هم اصروا على طلباتهم ، والوقوف خلف المدافع عند خطوط وقف اطلاق النار سنين طويلة ، سيهز الصورة الرائعة التى رسمتها الدعاية الصهيونية للجيش الاسرائيلى الذى لا يغلب ، بين جماهير اليهود الطيبين البسطاء فى العالم ، الذين يعيشون على رومانسية عسكرية حالمة تستمد عناصرها من قصة داود وتغلبه على العملاق جالوت ، هذا فضلا عن أن وقوف السنين الطوال خلف المدافع سيحد أيضاً من الانتاج ، وسيصيب بالعقم والجرب مواسم الحج والسياحة ، وسيتطلب المليارات من الليرات الاسرائيلية ثمناً لهذا الترف الذى تتحاشاه أكبر الأمم وأغناها ، وسيترك لحلفاء اسرائيل والواقفين وراءها فرصة طويلة للتأمل والتفكير الهادىء فى المصالح الحقيقية والدائمة لشعوبهم ، ستنتهى غالباً بانفضاضهم عنها كلياً أو جزئياً . وقد بدأ ذلك فعلا بتخلى فرنسا عن تبنيها للصهيونية ، وأعقب ذلك انكماشاً من جانب انجلترا وايطاليا وتركيا والارجنتين وغيرها من دول العالم فى موقفها من الصهيونية .

فى وسط هذا الدخان الكثيف ، يشب حريق المسجد الأقصى ، ولأمر ما تحرص اسرائيل على أن تعلن منذ بداية التحقيق أن المسئول عن هذه الجريمة «مايكل روهين» ليس يهودياً ولا اسرائيلياً بل شاب استرالى من اتباع طائفة مسيحية متطرفة ، ولكن العالم لا يبتلع ذلك بسهولة ، ويبدأ القلق ، لا بين المسلمين وحدهم ولكن بين جماهير العالم المسيحى أيضاً . وتذهب اسرائيل فى الاعتذار عن أقل ما يمكن اتهامها به وهو الاهمال فى القيام بمسئولياتها عن أمن الاماكن المقدسة وسلامتها كل مذهب . ولكن حججها تبدو واهية هزيلة لا تفلح فى ازالة القلق الشديد من نفوس غير اليهود فى الشرق والغرب . ويقوم وزير خارجيتها «ابا ايبان» بجولاته التقليدية ، لا يألو فيها جهداً ، حتى يصل إلى الفاتيكان وإلى لقاء قداسة البابا بولس السادس نفسه ، ولكن المقابلة «التاريخية» لا تأتى الا بنتائج «سلبية» . وتعلن رئيسة الوزراء السيدة «جولدا ماير» عن عزم الحكومة الاسرائيلية على ترميم المسجد الأقصى على نفقتها – كمجرد عملية تخريب ، ناجحة بكل أسف ، لمؤتمر القمة الاسلامى ..

كل هذا «والعقل الباطن» للعالم كله ما يزال ينقع فى تاريخ فولكلورى مؤداه كما قلنا أن القدس «مدينة داود» وأن ما يحدث فيها الآن – على بشاعته – هو صراع بين« ظواهر» طارئة وبين تاريخ قديم يريد أن يعيد نفسه . فلنعد إذن إلى التاريخ ولنتركه يقول ما عنده باختصار .

اورشليم (القدس) قبل العبريين

أقدم النقوش التى ورد فيها ذكر هذه المدينة موجودة عندنا فى المتحف المصرى بالقاهرة ، فى مجموعة اللوحات المكتوبة بالخط المسمارى واللغة البابلية (لغة العراق القديم) تتخللها شروح باللغة الكنعانية (لغة فلسطين القديمة) . وهذه النقوش تسمى «لوحات تل العمارنة» وقد عثر عليها فى أوائل القرن العشرين فى هذه المنطقة من محافظة أسيوط ، وهى وثائق دبلوماسية ترجع إلى عهد الفرعون أمنوفيس الثالث (من ١٤١١ إلى ١٣٧٥ قبل الميلاد) وابنه اخناتون (١٣٧٥ – ١٣٥٠ ق . م) .

تسمى أورشليم (القدس) فى هذه االنقوش «اوروسالم» . ففى رسالة كتبها «عبدحيبا» إلى أمينوفيس الثالث نجد أن الأول هو حاكم القدس «اوروسالم» من قبل فرعون ، وأنه يستنجده بمدد عسكرى لصد غارات شراذم من الغجر الرحل اسمهم «حبيرو» اتفق الباحثون على أنهم «العبريون» كما ذكر ذلك الاثرى «بندلبوزى» الذى أشرف زمناً طويلا على الحفائر فى هذه المنطقة وألف فيها كتابه المشهور «حفائر تل العمارنة» . ويقول المؤلف نفسه ان معبد «آتون» فى تل العمارنة بخطته المعمارية المتميزة ، وبالخلفية الدينية التى جعلته قبلة للناس كافة هو الذى الهم بناة المعابد فى بلاد النوبة والآسيويين فى اورشليم فكرة «المعبد المركزى» أو «المعبد القبلة» الذى يتجه اليه الناس اليه الناس جميعاً فى صلاتهم ويأتون اليه فى حجهم .

نجد اسم اورشليم بعد هذا التاريخ يتكرر فى لغات أخرى ، ففى نقوش الامبراطور الاشورى سنحاريب (حول ٧٠٠ ق . م) يرد اسمها هكذا «اوروسليمو» وفى العبرية «يروشالايم» وفى النقوش اليونانية من عهد الاسكندر الأكبر (حوالى ٣٣٠ ق . م.) وردت بلفظ «هيروسوليما» أو «سوليما» باختصار ، وانتشر اسمها من الكتاب المقدس فى جميع لغات العالم تقريباً .

أما اسم «القدس» فلابد أنه رافق المدينة منذ بداية تاريخها ، أى منذ ما قبل العبريين عندما أقيمت فيها لأول مرة أماكن مقدسة خاصة ببعض العبادات القديمة ، وعلى أية حال فان المؤرخ اليونانى هيرودوت (٤٨٤ — ٤٢٥ ق . م .) لم يذكر فى تاريخه المشهور اسم اورشليم ولكنه ذكر مدينة كبيرة فى الجزء «الفلسطينى» من الشام وسماها (قديتس) مرتين فى الجزء الثانى والثالث من تاريخه ، ويقول المستشرق اليهودى الفرنسى «سالومون مونك» فى كتابه «فلسطين» ان هذا الاسم على الأرجح هو «القدس» محرفاً فى اليونانية عن النطق الارامى «قديشتا» . وحتى اليهود فى الكتاب المقدس قد اطلقوا عليها أحياناً اسم «مدينة القدس» (اشعيا ٤٨/٢ ، نحميا ١١/١) و «جبل القدس» (اشعيا ٢٧/١٣) . كما سميت «مدينة الله» (المزامير ٤٨/١) «مدينة الحق» (زكريا ٨/٣) .

واسم «اورشليم» ليس عبرياً أصيلا ، فقد كانت تحمل هذا الاسم قبل دخول العبريين اليها بشهادة نص تل العمارنة ، وبدليل أن اليهود وجدوا صعوبة فى كتابة اسمها باللغة العبرية «يروشالايم» فهذه الياء الواقعة قبل الميم الأخيرة لم تكن تثبت فى الكتابة العبرية ، وقد كتبت بدونها فى اسفار العهد القديم ٦٥٦ مرة وكتبت بها ست مرات فقط ، ولذلك نص علماء التلمود على وجوب كتابتها بلاياء (التوسفتا ، كتاب الصوم (تعنيت) ١٦/٥) .

أما معنى «اورشليم» فمختلف فيه أيضاً ، وارجح الأراء من الناحية العلمية انها مركبة من «أور» بمعنى موضع أو مدينة و «شالم» وهو اسم اله وثنى لسكان فلسطين الأصليين هو « إله السلام » — يالسخرية التاريخ !. فالمدينة اذن كانت مكرسة لاله السلام حتى وصل العبريون . وهناك من يقول ان كلمة «اور» معناها الميراث ، فيكون «اورشليم» بمعنى ميراث السلام. أما أحبار اليهود فيدعون أن سام بن نوح قد سماها «شلم» أى السلام وان — ابراهيم الخليل قد سماها «يرأه» وهى بمعنى الخوف باللغة العبرية فقرر الله أن يسميها بالاسمين جميعاً «يرأه — شلم» أى «اورشليم» بمعنى الخوف والسلام (المدراش أو الشرح الكبير على سفر التكوين «بريشيت ربا — ٥٧») وبنوا على هذه التخريجات الفولكلورية عقائديات رهيبة حول السلام المتولد عن الرعب . وقيل أيضاً أن «يرو» يمكن أن تكون فى اللغات السامية بمعنى «اله» ويكون اسم المدينة بكل بساطة «اله السلام» .

ولو توفرت الأدلة على أن سام بن نوح هو الذى سمى المدينة باسمها لوافقنا احبار اليهود على أن المدينة نفسها ترجع إلى عهد سيدنا نوح ، ولكن لم يقل أحد غيرهم بذلك ، حتى التوراة نفسها ، فانها تتحدث عن «اورشليم» لأول مرة فى زمن ابراهيم (حوالى سنة ١٩٠٠ ق . م .) وكان اسمها «شاليم» فقط ، وكان ملكها من سكان فلسطين الاصليين ، ويبدو من السياق أنه كان يحكم حكماً دينياً ، تقول التوراة (سفر التكوين ١٤/١٨) «وملكيصدق ملك شاليم أخرج خبزاً ونبيذاً ، وكان كاهناً لله العلى ، وباركه وقال :

مبارك ابرام من الله العلى مالك السماوات والأرض» . فاورشليم (القدس) كانت مدينة مباركة لله العلى من قبل داود بل من قبل ابراهيم أيضاً .

وعلى عهد يوشع بن نون خليفة موسى (حوالى ١٤٥٠ ق . م .) كان العبريون قد أصبحوا بعشائرهم التى تهدد أمن المدن الفلسطينية خطراً يحسب حسابه ، ويؤكد ذلك نص تل العمارنة الذى أشرنا اليه . لذلك نجد تحالفاً يعقد بين أمراء الفلسطينيين على أثر انتصار يوشع بن نون فى أريحا وعاى وجبعون ، (يوشع ١٠/٣ — ٤) «فارسل أدونيصدق ملك اورشليم إلى هوهام ملك حبرون (الخليل) ، وفرآم ملك يرموت ، ويافع ملك لكيش ، ودبير ملك عجلون» . ولكن يوشع بن نون ينشر الرهبة فى كل فلسطين فتخضع له بعض البلاد ويحاربه البعض الآخر ، ويصالحه فريق من «الخائفين» على امتيازات معينة يتنازلون عنها للعبريين . وكانت «اورشليم» من المدن الفلسطينية التى قاومت الغزو قروناً طويلة . فمثلا نجد يوشع بن نون نفسه يجعلها فى نصيب قبيلتى بنيامين ويهوذا من أسباط بنى اسرائيل ، ولكنهما لم يستطيعا — ولمدة طويلة جداً — طرد سكانها الأصليين «اليبوسيين» وهم احدى القبائل الفلسطينية القديمة ، (يوشع ١٥/٦٣) : «وأما اليبوسيون الساكنون فى أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بنى يهوذا فى أورشليم الى هذا اليوم» . والمقصود اليوم الذى يروى فيه الراوية هذه الوقائع عن يوشع وبعد وفاته بمدة علمها عند الله . وبعد موت يوشع بن نون أعاد سبط يهوذا الكرة على أورشليم ، «وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار» ، سفر القضاة (١/٨) . أما سبط بنيامين فانهم فشلوا كذلك فى طرد اليبوسيين وسكنوا معهم «إلى هذا اليوم» (قضاة ١/٢١) .

لذلك بقيت أورشليم تسمى «يبوس» أو «مدينة اليبوسيين» كما جاء فى سفر القضاة (١٩) ، وفى هذا الموضع نجد نصاً يستحق الانتباه ، حين يقول فى سياق القصة التى يرويها : ... «وفيما هم عند يبوس ، وقد انحدر النهار جداً ، قال الغلام لسيده : تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت

فيها . فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بنى اسرائيل هنا» .

وسنرى ان المدينة المقدسة ظلت إلى عهد داود لليبوسيين ، سكانها الأصليين من شعب فلسطين . ومعروف أن داود عاش حوالى سنة ألف قبل الميلاد ، وبالتالى ظلت مدينة «السلام» من أول ما لقيناها فى التوراة على أيام ابراهيم إلى تلك الفترة — نحو ألف سنة — تقاوم التسلل العبرى ، والمطامع اليهودية فلا ينال الاسرائيليون منها الا بالتخريب والاحراق حيناً أو بالمساكنة والتعايش السلمى أحياناً .

ومع داود فقط تبدأ «عقدة أورشليم» مدينة الله ومدينة السلام ومدينة اليبوسيين الفلسطينيين منذ ... منذ ما قبل التاريخ كما أثبتت ذلك أحدث الحفائر التى أجريت فى المنطقة . ومن المستحسن قبل أن نخطو الخطوات الأولى نحو «أورشليم اليهود» أن نتصور بما يمكن من ايجاز والوضوح طبيعة اقليم القدس وموقعها .

تقع القدس على خط عرض ٣١° ٤٦َ ٤٥ً شمال خط الاستواء، وعلى خط طول ٣٥° ١٣َ ٢٥ً شرق جرينتش ، وهى هضبة غير مستوية تماماً يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ ، ٢٤٦٩ قدماً . وجوها قارى صحراوى إلى حد كبير ، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠° صيفاً وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء ، كما أن التفاوت فى الحرارة كبير بين النهار والليل ، ومطرها شتوى متوسط ، ورطوبتها متوسطة أيضاً ، ويندر بها الثلج . وليس بها أنهار ، وانما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت فى غزارة الماء وصلاحيته للشرب ، وتندفع من بعض هذه العيون جداول موقتة بهطول الأمطار . وكانت المدينة إلى عهد ليس بالبعيد تعتمد أساساً على تجميع مياه الأمطار فى صهاريج وآبار أعدت لهذا الغرض ، وأعلى مرتفعاتها يوجد على حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية ، ولذلك اعتبرت منذ القدم موقعاً استراتيجياً قوياً جداً واشتهرت بأنها لا تظهر عند الزحف عليها من بعد ،

بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحركات المهاجمين لها وهم ما يزالون على مسافة طويلة .

وأهم جبالها هي :

١ — جبل الزيتون :

وهو المواجه لأسوار الحرم من الجهة الشرقية ، يفصله عنه واد عميق سريع الانحدار هو «وادى قدرون»،وامتدادهما من الجنوب إلى الشمال . وهو من الوجهة التاريخية من أهم الجبال المحيطة بالقدس ، والتلمود يسميه «جبل المسح» أى جبل التتويج ، لأنهم يأخذون من زيتونه الزيت المقدس الذى يستعمل فى تتويج ملوكهم ، وعليه كانت تحرق بقرة القربان الحمراء (فى التلمود ، وهى فى القرآن «صفراء فاقع لونها») ، وكانوا يستخدمون الرماد المتخلف عن احراقها فى تطهير الهيكل واعادة تكريسه إذا دنس ، وهى عادة وثنية منتشرة فى هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية . وفى أسفل هذا الجبل توجد حديقة المعصرة «جتسمانى» التى اكتسبت ذكريات قدسية لدى المسيحيين من صلاة يسوع عندها وهو فى النزع الأخير . وفى أعلاه مغارة القى فيها المسيح بعض تعاليمه ، والتقى بحوارييه قبل صعوده إلى السماء ، وعليه بكى المسيح على «أورشليم» ، وحياه المؤمنون به بالأغصان الخضراء يوم أحد السعف الذى يتقدم الفصح . والعرب يسمونه اليوم «جبل الطور»

٢ — جبل بطن الهوا :

وهو امتداد جبل الزيتون فى الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس يفصله عنها «وادى سلوان» الذى يتصل فى هذه النقطة نفسها بوادى قدرون . ويسميه اليهود «هارهامشحيت» أى «الجبل الفاضح» ، ويزعمون أن سليمان أقام عليه المعابد الوثنية لنسائه الاجنبيات ، وأنه هو المقصود فى سفر الملوك الأول ١١/١ — ٨ : «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ، موآبيات وعمونيات ، وأدوميات ، وصيدونيات ، وحيثيات ، من الأمم

الذين قال عنهم الرب لبنى اسرائيل لا تدخلون اليهم وهم لا يدخلون اليكم ، لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم . فالتصق سليمان بهؤلاء بالحب ، وكانت له سبعمائة من النساء الحرائر وثلثمائة من السرارى ، فأمالت نساؤه قلبه ، وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ، ولم يكن قلبه كاملا مع الرب الهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتروت الاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين ، وعمل سليمان الشر فى عينى الرب ، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه . حينئذ بنى سليمان معبداً لكموش ، رجس المؤابيين ، على الجبل الذى تجاه اورشليم ، ولمولك رجس بنى عمون . وهكذا فعل لجميع نسائه الأجنبيات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لالهتهن» .

٣ — جبل صهيون :

فى الجنوب الغربى للقدس القديمة ، وكانت عليه قلعة اليبوسيين التى انتزعها داود منهم بالحرب ، ثم نقل اليها قاعدة حكمه التى كانت حتى السنة الثامنة لتوليه الملك فى جبل «جرزيم» بالقرب من نابلس شمالا ، وسماه منذ هذا الوقت «مدينة داود» . وكان يفصل جبل صهيون قديماً عن هضبة القدس جبل أقل ارتفاعاً يمتد منحنياً على شكل هلال إلى الشمال الشرقى من صهيون ، وكان يمر بين الجبلين واد ضيق كان يسمى حسب قول المؤرخ اليهودى يوسفوس (من القرن الأول الميلادى) «وادى الجبانة » التيروبويون» أى صانعى الجبنة ،وكان يمتد من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى حيث يتصل بوادى سلوان ،الذى يتصل بدوره بوادى قدرون شرقاً . وهذا الجبل الصغير لم يرد له اسم خاص فى الكتاب المقدس ، ولكن فى عهد الملك اليونانى السلوقى انطيوخوس الرابع (ابيفانوس) الذى حكم الشام من ١٧٥ إلى ١٦٤ ق . م . ثار اليهود على حكمه فحضر وقمع ثورتهم وبنى على هذا الجبل الصغير المواجه للقدس من الغرب قلعة سماها «أكرا» ومن ثم أصبح هذا الجبل يسمى .:.

٤ — جبل اكرا

٥ — جبل موريا

أو جبل بيت المقدس ، أو بالاختصار «الحرم» حيث المسجد الاقصى وقد ورد اسم «موريا» فى التوراة (التكوين ٢٢/٢) فى قصة الذبيح الذى أمر الله ابراهيم أن يقدمه قرباناً وحدد له هذا الموضع ليذبح فيه ابنه اسحق والموضع ما يزال حتى الآن محل خلاف كبير فى هذه القضية بين الباحثين وبين اليهود أنفسهم ، فاليهود السامرة يرون أن الحادثة كانت على جبل جرزيم القريب من نابلس ، حيث قام أقدم هيكل لبنى اسرائيل وهو الذى جاء داود فأبطله وعطله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس ، أما طوائف اليهود الأخرى فتزعم أن وقفة ابراهيم بابنه كانت على هذا الجبل بالقدس ، وعلى الصخرة الشريفة بالذات . وأكثر المسلمين يعتقدون أنه اسماعيل .

٦ — جبل رأس المشارف ، سكوبوس :

ويسميه التلمود «جبل المراقبين» (هار هاصوفيم) وهو امتداد لجبل الزيتون من الشمال الشرقى إلى الشمال ، يفصل بينهما منخفض يسمى « عقبة الصوان » .

٧ — ويبدو أنه كان فى قديم الزمان جبل يقوم بين جبل سكوبوالس وبين هضبة الحرم «جبل موريا» ذكره يوسفوس فى كتابه (حرب اليهود — الجزء الأول ، الباب الخامس) وسماه «بزيتا» أى «بيت الزيتون» أو « منبت الزيتون» . ولما تولى «اجريبا الأول» (٤١ — ٤٤ ميلادية) وهو من أسرة هيرودس التى اهتمت كثيراً بتجميل القدس كما سترى ، ردم ما بين « جبل موريا» وجبل «بزيتا» ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير بحيث أصبح حياً من أحياء القدس كان يسمى «المدينة الجديدة» .

وعلى ذكر هذا الردم بين جبلين فقد حدث فى القدس نفسها قبل ذلك ، فى حكم الأمير اليهودى المكابى شمعون من أسرة الحشمونيين التى كانت تحكم

فلسطين حكماً دينياً من قبل اليونان ، نقول فى هذا الوقت (سنة ١٤٠ ق . م.) قام شمعون بردم ما بين تل «اكرا» حيث قلعة انطيوخوس السلوقى وبين جبل الحرم «موريا» بحيث صارا شيئاً واحداً أيضاً .

وهكذا إذا أخرجنا جبل الزيتون وامتداده جنوباً وشمالا ، لانفصاله التام عن القدس بالمنخفضات والوديان الشرقية والجنوبية والجنوبية الشرقية وأخذنا فى الاعتبار أن جبل الحرم «موريا» أصبح يضم جبل «بيزيتا» من الشمال الغربى ، وجبل «اكرا» من الجنوب الشرقى ، أمكننا أن نقول أن المدينة كانت تقوم بهذاالشكل على مرتفعين اثنين هما هضبة «الحرم ، وقبالتها فى الجنوب الشرقى «جبل صهيون» يفصل بينهما جزء من وادى الجبانه «تيروبوبون» ، وهذا ما لاحظه المؤرخ اللاتينى تاسيت فى كتابه (الجزء الخامس) .

ويذكر يوسفوس أيضاً أنه كانت هناك قنطرة تربط هضبة الحرم «جبل موريا» بالزاوية الشمالية الشرقية لجبل صهيون حيث كان يوجد كورنيش يقال له باليونانية (كسيستوس) وهذا العمل يرجع أيضاًإلى أمراء الحشمونيين الذين حكموا باسم اليونان فى فلسطين ، فهم الذين ردموا جزءاً من الوادى وبنوا قنطرة قائمة على عقود مقوسة توصل من «مدينة داود» على جبل صهيون إلى «الحرم» على جبل موريا وهو الطريق الذى يمتد الآن من الحرم إلى باب السلسلة .

ولا نستطيع وقد أوضحنا مواقع جبال القدس وما طرأ عليها الاأن نشير إلى المنخفضات أو الوديان الفاصلة بينها مجتمعة بعد أن سبقت الاشارة لبعضها فى مواقعها .

١ — وادى قدرون شرقاً :

وهو اسم جدول الماء الذى يجرى فى قاعه عندما يسقط المطر ، وقد

اشتهر باسم «وادى يهوشافاط» (سفر يوئيل ٢/٣، ١٢) وطوله نحو كيلو مترين يفصل السور الشرقى للقدس عن جبل الزيتون ، ويعتقد كثير من الطوائف المسيحية واليهودية أن الحشر يوم القيامة سيكون فى هذا الوادى اعتماداً على قول النبى يوئيل : «أحمل كل الأمم وانزلهم إلى وادى يهوشافاط وأحاكمهم هناك» ، وفى الموضع الثانى الذى أشرنا اليه يقول النبى يوئيل «تنهض الأمم وتصعد إلى وادى يهوشافاط لانى هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية» .

٢ — وادى سلوان جنوباً :

وهو اسم النبع الموجود فى هذا الوادى ، والذى ينساب منه مجرى ماء اسمه جيحون ، أما الوادى نفسه فكان يحمل قبل مجىء العبريين اسم قبيلة «هنم» بتشديد النون ، فكان يقال «وادى هنم» أو «وادى بنى هنم» وكلمة الوادى كانت فى لغات سامية قديمة متعددة هى كلمة «جى» ، فكان يقال «جيهنم» أى هذا الوادى نفسه ، وكانت هذه القبيلة ، فى الوثنية البعيدة فى القدم ، تقدم الضحايا البشرية إلى الهها «مولك» بذبحها والقائها فى النار ، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنم» على مكان العذاب فى الآخرة للشبه القائم بينهما . ووادى «هنم» أو «سلوان» أو «جيحون» هذا يمتد على طول جنوبى القدس حتى الطرف الجنوبى الشرقى من جبل صهيون . وسمى هذا الوادى بين العرب «حقل الدماء» .

٣ — وادى الجبانه أو «التيروبيون» :

يفصل جبل صهيون عن غرب القدس ويبدأ حيث ينتهى وادى سلوان وكان يسمى فى الجزء الجنوبى الغربى من القدس «وادى الزبالة» أو «وادى الدمن» أو «وادى القمامات» ، وقد أشرنا إلى ردم جزء منه فى أعمال توسيع لجبل صهيون وللحرم المقدس الواقع على جبل «موريا» الذى هو هضبة الحرم الشريف.

٤ — وادى الأرواح :

«رفائيم» بالعبرية ، أو العفاريت ، يدور حول غرب جبل صهيون وأقصى الجنوب ، وبه مدافن للموتى .

داود ... ومدينته

قلنا أن القدس ظلت فلسطينية فى أيدى اليبوسيين إلى السنة الثامنة من حكم داود . كان داود من الجنوب ، من صحراء النقب ، حيث اختارت قبيلة — سبط يهوذا — تلك الجهة مسرحاً لحياتها البدوية الرعوية . ثم انه انتقل إلى الشمال حيث كان نبى بنى اسرائيل «صموئيل» قد توج أول ملك على كل الشعب هو «شاول »،وكان داود قد التحق ببلاط شاءول . وفى هذه الآونة كان سكان البلاد الأصليين «الفلسطينيين» يريدون التخلص من الوجود «العبرى» فى بلادهم ، وكانت الحرب سجالا بينهم وبين الاسرائيليين وبرز من الفلسطينيين بطل عملاق مخيف هو «جالوت» استطاع داود أن يقتله بحجر أطلقه من مقلاع ، ثم قطع رأسه بعد ذلك ، وأخذها ليفخر بانتصاره فى الجنوب ، ومر بها على أورشليم . ومنذ هذا الوقت بدأت شعبية داود فى الاتساع حتى بات الملك شاءول يحقد عليه ويدبر الأمر لاغتياله دون جدوى وأخيراً تعرض شاءول لهزائم ساحقة ومتعددة من «الفلسطينيين» انتهت بأن انتحر على أحد الجبال على أثر معركة فاشلة . وأصبح داود بعده ملكاً . فأراد أن يترك الشمال إلى نقطة حصينة أكثر توسطاً من حيث الموقع ، فوجد مطلبه هذا فى «مدينة اليبوسيين» اورشليم . فهى قريبة من ديار سبط يهوذا وهم عشيرة داود ، وهى وعرة المسالك للقادم من الأردن أو من البحر أو من الشمال على السواء ، وهى حصينة غير مكشوفة للغزاة ، ثم انها بعد كل هذا فى وسط عشائر فلسطينية قديمة يبدو أنهم كانوا أكثر ميلا إلى المسالمة من أهل الشمال .

بدأ داود بالاستيلاء على جبل صهيون ، وكانت فيه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن القدس ، وكانوا يسمون جبل صهيون بالمنشآت القائمة

عليه «المدينة الفوقانية» ، بالنسبة لهضبة الحرم (جبل موريا) التى كانوا يسمونها «المدينة التحتانية» . استولى داود إذن على «المدينة الفوقانية» وحصنها وجعلها قاعدة لحكمه . ولما كانت أسرته هى سبط يهوذا ، فمنذ هذا الوقت بدأ العبريون أو الاسرائيليون يسمون باليهود أيضاً ، ولما كان داود ، على طريقة امراء بنى اسرائيل ورؤسائهم فى العصور القديمة ، وعلى طريقة الكثير من الحكام القدماء ، يستمدون سلطتهم من «الله» ، فقد جعل من صهيون مقر السلطة الدينية والسياسية والعسكرية جميعاً . ولم يجد غلاة المتعصبين من اليهود فى العصر الحديث تسمية أكثر سحراً فى آذان فقراء اليهود وبسطائهم من «الصهيونية» وما تقترن به من قوة داود وشدة شكيمته وأبهة سليمان وبهاء عظمته وفخامته على عرشه الاسطورى العجيب؛ فاختاروها اسما وشعارا .

ظل داود يضغط على اليبوسيين ، ويضايقهم فى جبلهم (موريا) ويريهم صنوف الاذلال ، وهم يرحلون تاركين له ديارهم حتى لم يبق الا مسطح القمة ، فكان المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، ملكاً لليبوسى «آرونا» يتخذه جرنا ومربضا لماشيته . فاشتراه منه داود بما فيه من المواشى ، وقالوا فى عنعنات شفوية يهودية لا يقوم عليها أى دليل ، ان داود جعل من الصخرة التى على الهضبة مذبحاً للرب . وصاغوا حول ذلك أساطير لا تكاد تنتهى حتى قالت بعض نصوص التلمود (توسفتا ــ يوما / ٨٤ ، ٨) ان الله تعالى خلق الأرض ابتداء من هذه الصخرة » وقال أحد أحبارهم وهو اليعازر البابلى «ان الصخرة هى أصل خلق الأرض ، وان صهيون هو سرة العالم ، وهو كامل الجمال والبهاء» (التلمود البابلى ــ يوما / ٥٤) . وجاء فى كتاب «زوهر» وهو من كتب التصوف اليهودى المشهورة « ان يعقوب نام على الصخرة وهو منطلق من بيت أبيه أسحق» بينما المعروف أنه نام فى «بيت ايل» قرب نابلس . ولكن هذا التحريف يهدف إلى نقل قدسية «بيت ايل» المجاورة لنابلس ، والتى ظل اليهود السامريون على وفائهم لها كقبلة ليعقوب ، إلى أورشليم .

والحق أننا لا ندرى أية صخرة يعنى اليهود ، فالتلمود يذكر أن الصخرة التى يقدسونها ترتفع عن مستوى سطح الأرض ثلاثة أصابع (التلمود — يوما/ ٨٥ — ٣ ، ٤ ، توسفتا ٦/٨٣ وموسى بن ميمون فى كتابه «طقوس يوم الغفران») بينما الصخرة الموجودة حالياً ترتفع عن مستوى سطح الأرض بنحو متر كامل ، ومحيطها يناهز العشرة امتار ، وتحتها فجوة هى بقية مغارة قديمة عمقها أكثر من متر ونصف ، تبدو الصخرة فوقها وكأنها معلقة بين السماء والأرض ، وبين الصخرة وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار .

ومن الذين شكوا فى أن تكون الصخرة الشريفة هى الصخرة المعنية فى التلمود ، الباحث الألمانى «شيك» فى أوائل هذا القرن ، فهو يقول ان الصخرة الحالية ربما كانت على أكثر تقدير أحدى ركائز المذبح الخاص بالقرابين فقط . ولم تكن فى يوم ما داخلة «ضمن» قدس الاقداس» . أما صخرة اليهود التى يسمونها بعد أساطير التلمود التى أشرنا اليها «ايبن هاشتيا» — أى حجر الاساس — فالله أعلم ماذا صنع بها بختنصر وانطيوخوس ايفانوس وتيتوس وفسبازيان وهدريان والصليبيون وغيرهم ممن دمروا أورشليم مراراً وتكراراً تدميراً كاملا .

والعجيب فى أمر الباحثين اليهود ، وفى مقدمتهم دوائر المعارف العبرية المختلفة وماكتبوه من المؤلفات عن القدس ، انهم إذ يؤكدون بلنون أية حجة أن الصخرة الشريفة هى «حجر الأساس» المذكور فى التلمود ، ينفون نفياً باتاً أن تكون كنيسة القيامة بالقدس ذات علاقة أيا كانت بجسد المسيح عليه السلام ، فدائرة المعارف الاسرائيلية العبرية المنشورة فى نيويورك سنة ١٩١١ تقول فى هذا الصدد أن دفن الموتى داخل أسوار القدس كان لا وجود له اطلاقاً ، وان أقرب المقابر إلى أسوار القدس هى مقابر « سامبوسكى » عند قدم جبل صهيون من الطرف الجنوبى الشرقى خارج السور مباشرة ، والمقابر المذكورة تحمل اسم العائلة التى بنت فيها مدفناً كبيراً فى العصر الحديث ، وقد عثر فيها على مقابر قديمة أيضاً ، وأضاف كاتب البحث

إلى ذلك أنه طيلة عهد الهيكل الثانى» (أى من القرن الخامس قبل الميلاد إلى سنة سبعين ميلادية) لم يدفن أحد داخل أسوار المدينة المقدسة ، وبناء على ما ذكر يكون مستحيلا فى رأيه أن يكون الجسد المصلوب قد دفن فى هذه البقعة التى هى من صميم أورشليم وفى داخل أسوارها .

ولا نريد أن نناقش الأمر «بيزنطياً» وانما نشير إلى أن المسيح وأتباعه لم يتمسكوا من الشريعة القديمة الا بالناموس الموسوى والأوامر والنواهى التى أبلغها الانبياء ، أما «التلموديات» التى لا تعد ولاتحصى فقد كانت رسالة المسيح فى جوهرها ومنطوقها تنادى وتجاهر بابطالها وتطهير العقول منها ، حتى لا يخضع الشعب اليهودى خضوعاً أعمى لظلامها المطبق ، الذى تفرضه السلطة الكهنوتية اليهودية على الشعب البسيط المخدوع المحروم من النور الحق وما دام الأمر كذلك ، فما الذى يفرض على أتباع المسيح فى عشية الصلب ، وأيدى كهنة التلمود ما تزال مخضبة بدمائه ، أن يحترموا عرفاً لا يستند إلى أمر أو نهى من الله ؟ ثم ان الحفائر المختلفة ما تزال كل يوم تكشف عن موتى لا يحصى عددهم وجدت عظامهم داخل الأسوار .

مدينة داود ... بعد داود

ورث سليمان داود ، وكان ملكاً يحب الفخامة ويميل إلى حل مشاكل السياسة والاقتصاد حلولا دبلوماسية لا يلجأ فيها إلى قوة السلاح ، فصاهر جيرانه مبتدئاً بالقصر الفرعونى فى مصر اذ تزوج ابنة فرعون ، ثم غيرها وغيرها من بنات الملوك والحكام المحيطين بمملكته الصغيرة . وحاول أن يجعل عاصمة ملكه — أورشليم — لا تقل عظمة وعمرانا عن العواصم الكبرى فى الشرق فى زمانه ، فبدأ بتشييد سور فاخر حول المدينة ، ثم أخذ فى بناء المعبد الكبير — الهيكل — الذى كان أبوه داود قد بدأه قبل موته ، ومع ذلك فان الاخبار الاسطورية عن فخامة هذا الهيكل وضخامته لا يمكن أن تكون قد نجت من شطحات الخيال اليهودى الحالم فجاءتنا مبالغاً فيها أشد المبالغة . وهكذا يقول الكاتب اليهودى الأمريكى لويس براون فى كتابه المسمى

«حياة اليهود» ان انجازات سليمان فى أورشليم ، وفى مقدمتها قصره الملكى كانت تبدو فى عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور . مع أنها لو قورنت بالقصور الهائلة فى مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة سمجة الذوق .. كان القصر مكوناً من عدة أبنية منفصلة : بناء للصناع ، وقاعة للاجتماعات ، وبهو للعرش،والمحكمة العليا ، و «حرملك» كبير يكفى لسكنى المئات من نسائه . وكان هناك أيضاً معبد ، وهو بناء صغير طوله مائة قدم وعرضه ثلاثون قدما ، موضوع فيه «تابوت العهد» ــ هذا الصندوق الذى تحفظ فيه التوراة ولا شك أن المعبد كان بالنسبة لسليمان مشروعاً أقل أهمية من القصر ، كان مقصورة دينية فى بلاط الملك ، ولذا لم يستغرق بناؤه أكثر من نصف الوقت الذى استغرقه بناء القصر . ولكنه مع مرور الزمن ، وبعد الكهنة والانبياء الذين وفدوا عليه على طول حكم أسرة داود ، كان يتخذ فى خواطر اليهود مكانة ، وكانت له من بعد ذكريات ، ربما لم يستطع شيء آخر على هذه الأرض أن يضمن مثل ما استطاع هو بقاء اسرائيل عليها ، مع أنه كان فى حد ذاته أصغر من أى معبد يهودى فى أمريكا الآن ، ومن كثير من كنائس الارياف المنتشرة فى انحاء العالم . بالرغم من هذا فانه أقوى بناء شيدته يد الانسان من حيث عمق أثره وقوته . وما يقوله لويس براون صحيح ، بل ربما كان دون الابعاد الحقيقية لسيطرة هذا الهيكل على نفوس اليهود وخيالهم ، بعد تدميره واندثاره . وحتى الآن اقترنت أورشليم به ، وتقدس لدى اليهود من أجله وإذا ذكر اسمها فالمراد هو أولا وقبل كل شيء ، وما كتبه الكتاب والاحبار من شطحات خيالهم حول ذلك شيء تضيق عنه مئات المجلدات . بحيث كان كل اليهود فى حاراتهم القذرة وأسمالهم البالية ، على الثلج ، وفى الوحل ، يعيشون فى هيكل أورشليم مع سطور التلمود ومع كتابات الاحبار ، وكانت صيغة المعايدة الدائرة على السنتهم — وبخاصة فى عيد الفصح — هى «السنة القادمة فى أورشليم» وهو شعار استغلته الصهيونية ، وكهربت به أعصابهم ، وأعطته كل المعانى الحربية والعسكرية الممكنة . ولنذكر نموذجاً واحداً من هذه الشطحات الكهنوتية اخترناه من كتاب التصوف اليهودى «زوهر» ٢ / ٢٢٢ : « عند خلق العالم ، ألقى

الله حجراً كريماً من عرشه العظيم فى الفضاء المظلم ، فغطس فيه جزء من هذا الحجر وبرزت بقيته فوق السديم . وهذه البقية البارزة كنقطة فى هذا الفضاء اللانهائى بدأت تمتد فى كل الاتجاهات عن يمين وشمال ، وأرسيت الدنيا عليها ، ولذلك يسمى هذا الحجر «حجر الأساس» ، وكان تكوين الأرض حوله على ثلاث مراحل: المرحلة الأوه عبارة عن منطقة مستديرة حول الحجر ، نورانية شفافة ، والثانية من حولها مصنوعة من مادة أقل شفافية ولكنها أكثر رقة من الأرض ، والثالثة أرض معتمدة ، يطوقها المحيط الذى يدور حول العالم . وهذه المناطق الثلاث ممثلة فى الهيكل الذى فى أورشليم : فالمنطقة النورانية ، وهى النقطة العظمى ، عبارة عن الهيكل ومدينة أورشليم ، والثانية ، الأقل شفافية هى الأرض المقدسة «فلسطين» ، والثالثة المعتمة هى بقية العالم حيث تسكن الأمم غير اليهودية من الكفار . أما المحيط الذى يدور بكل شىء فهو مملكة الجن التى تحيط بالعالم . ولم تر الدنيا قط شيئا أجمل من ستائر تابوت العهد . وعندما أدخل تابوت العهد إلى الهيكل صاح بآية المزامير ١٤/١٣٢ : هذا مستقرى إلى الأبد وهنا سوف أقيم . وكان صوت الروح القدس يردد هذه الكلمات على مسامع اسرائيل . » ولولا الهيبة التى يجب اصطناعها أمام مقدسات الناس جميعاً تأدباً واحتراماً لمشاعرهم لعبرنا عن رأينا بصراحة فى مثل هذه الشطحات ، وان كان لا يغيب عن البال ما يهدف اليه الراوية لهذا اللون من الأدب الشعبى من تأكيد العنصرية البغيضة التى اخترعها «شعب الله المختار» وكان أول من اصطلى بنارها أيضاً ، ومن تأكيد البقاء الأبدى فى «أورشليم» ، بينما المسكين قد عاش تائهاً غارقاً فى «المنطقة المعتمة» القريبة من «مملكة الجن» المحيطة بالأرض ... رحمه الله ..

وما كاد سليمان يلقى ربه حتى حدثت حرب أهلية بين الاسباط وانقسمت المملكة شطرين ، وأصبح الهيكل وأورشليم قبلة لنصف العبريين فقط .

ثم تعرضت القدس مباشرة لهجوم الجيش المصرى الفرعونى (حوالى سنة ٩٧٠ ق . م) . وهى تحت حكم «رحبعام بن سليمان» . وتوالت عليها بعد ذلك الهجمات المتلاحقة : من الادوميين فى الأردن إلى العرب إلى الاراميين

إلى الاسرائيليين فى مملكة الشمال ، عندما هاجم يهوآش ملك اسرائيل أمصيا ملك أورشليم ويهوذا وهدم أسوارها وأخذ ما فى الهيكل من الذهب والفضة والأوانى ، ونهب القصر وأخذ بعض الرهائن وعاد إلى السامرة (الملوك الثانى ١٤/١٤) .

وتكرر الزحف المصرى على أورشليم فى حكم الفرعون نخاو ، وكان ملك يهوذا يهو آحاز (حوالى ٦١٠ ق . م .) .

ثم انتعشت أورشليم فى عهد الملك عزيا هو الذى حكم أكثر من نصف قرن من الزمان ، وكان مهتما بتحصينها فبنى حولها أبراجاً وحفر آباراً وأنشأ البساتين والحدائق (اخبار الايام الثانى ٢٦) . واستمر انشاء البوابات والتحصينات على عهد ابنه يوثام .

وتبلور الخطر الاشورى على القدس فى عهد سنحاريب الذى كان معاصراً لحزقيا ملك يهوذا ، فأخذ هذا الأخير فى زيادة التحصينات بالقدس وقام بردم آبار الماء التى فى خارجها حتى لا ينتفع العدو بها وكذلك الجداول الجارية منها ، ودعم السور فى المواضع المتهدمة منه وحصن قلعة داود على جبل صهيون ، وقام بمشروع هندسى ناجح أجرى به مياه نهر جيجون الذى يجرى جنوباً خارج القدس تحت الأرض إلى داخل المدينة ، وأنشأ صهاريج للماء ، وهكذا استطاع أن يواجه الحصار الاشورى دون أن يضطر إلى الاذعان .

الخراب الأول ، والهيكل الثانى

كان بختنصر ملك بابل يحاول أن يسوى حساباً قديماً مع فراعنة مصر ، ولكنه فى كل مرة يجد عقبة ما فى فلسطين تظهر له فجأة من قبل اليهود فيبوء بالفشل ، وأخيراً (سنة ٥٨٨ ق . م .) هاجم القدس بعد أن كان استولى على أهم اجزاء فلسطين ، ومنها غزة فى أقصى الجنوب ، وكان ملك يهوذا فى ذاك الوقت «صدقياهو» ، ولما سقطت القدس بعد مقاومة رهيبة أحرقها الجيش البابلى وخربها ونهبها ، وأخذ معظم أهلها أسرى إلى العراق .

حيث بقوا سبعين عاماً ، إلى ما بعد نجاح الامبراطور كورش ملك الفرس فى احتلال العراق واسقاط الامبراطورية البابلية ، وقد لقى جيشه بطبيعةالحال كل التسهيلات اللازمة لمهمته من قبل اليهود الموتورين المحتجزين فى العراق ، فسمح على الفور بعودتهم إلى فلسطين وتأسيس «وطن قومى» تحت رعايته وحمايته داخل ملكه وسلطانه ، فعاد كثير منهم برئاسة يوشع بن يوصدق وزروبابل بن شلتئيل وبعدهما بثمانية عشر عاماً جاء عزرا ونحميا ، الذى أخذ فى اعادة بناء هيكل سليمان (يقول الرواة : بصورة أقل فخامة ، ولعل ذلك من فرط اعجابهم الخيالى بهيكل سليمان فقط) .

وفى سنة ٣٣٢ ق . م . احتل الاسكندر فلسطين وادخلت تحت الحكم اليونانى ، ولكن أحد أحبار اليهود وهو «شمعون بن حونيو» استطاع بدبلوماسيته أن يحوز رضا الاسكندر وأن يظفر منه بمزيد من العناية بتجميل القدس (التلمود ، يوما) ، وبعد موت الاسكندر استولى بطليموس الأول «سوتير» على أورشليم حوالى سنة ٣١٠ ق . م . ، وأخذ كثيراً من أهلها أسرى إلى الاسكندرية .

ثم زحف عليها ملك سوريا انطيوخوس السلوقى اليونانى سنة ٢٠٣ ، وعاد فاستردها منه القائد البطلمى « سكوباس » المصرى سنة ١٩٩ . والظاهر أن اليهود فى المدينة كانوا أميل إلى حكم السلوقيين ، وقد ساعدوا انطيوخوس على دخول القلعة ، كما يقول يوسفوس ، ومباغتة المصريين فيها . وبسبب ذلك خفف انطيوخوس الضرائب عن يهود القدس ، واهتم بعمارة الهيكل والمدينة وتدعيم حصن داود . ويصف اليونانى أرسطياس ، المعاصر لهذه الأحداث ، فخامة القدس بما يبين أنها كانت مدينة كبيرة لها أسوار وعليها ابراج ، والخدمة الدينية فى الهيكل كانت على أرفع نظام ، وكان عدد السكان مائة وعشرين ألفاً . وتعود اليهود بعادات اليونان ، وتركوا الرب ، وظهرت فرقة «ياسون» وأخيه «منيلاوس» ، وقالا بأن منصب الحاخام الأكبر يجب أن يكون بالوراثة لا بالانتخاب وحدثت فتنة كبيرة ، انتهزها الحاكم السورى انطيوخوس ابيفانوس فزحف على أورشليم سنة ١٧٠ ق . م . ونهبها وذبح كثيراً مى يهودها .

وبعد ذلك بعامين هجم قائده ابولونيوس على المدينة مرة أخرى فأكثر فيها من القتل والتخريب واقتحم الهيكل وأقام فيه تمثال انطيوخوس ، وبنى بجواره مسرحاً للتمثيل وأخذ معه رهائن من يهود القدس . فقام من أمراء المكابيين اليهود الحشمونيين «متياهو» ثائراً ضد اليونان هو وأولاده الخمسة ثم أتم يهودا المكابى هذه الثورة بطرد اليونان من الهيكل ، ومن جزء كبير من المدينة سنة ١٦٥ ق . م . وواصل هذا الكفاح شمعون المكابى ، ففى سنة ١٤٣ طرد الحامية اليونانية من قلعة داود «صهيون» .

وعاد اليونان بقيادة انطيخوس السابع (سيديتاس) فى عهد يوحنا هيرقانوس المكابى فاتقى هذا الأخير شره بتقديم قوالب من الذهب استخرجها من قبر داود ، يقول يوسفوس ان وزنها كان٧٥ طناً ، ثم حدث نزاع على العرش بين هيرقانوس وأخيه أرسطوبولوس فى داخل القدس .

اورشليم وروما

أثناء هذه الفترة زحف القيصر الرومانى «بومبى» على فلسطين واحتلها سنة ٦٦ ق . م . وقتل من اليهود فى القدس وحدها ١٢,٠٠٠ ، بينما كان اليهود يخربون كل شىء بأيديهم ويحرقون المدينة كلها بالنيران حتى لا ينتفع بها العدو .

وبعد مدة وجيزة كثرت الاضطرابات فى أورشليم ، فزحف عليها حاكم سوريا الرومانى «لوقيانوس كراسوس» ، ودخل الهيكل ونهبه ، وكان ما فيه من الذهب والفضة والانية الثمينة يقدر بنحو خمسين طناً .

وزار يوليوس قيصر فلسطين ، فأذن لليهود فى بناء الأسوار التى كان بعضها قد تهدم .

وفى هذه الاثناء كان هؤلاء «الأمراء» من أواخر المكابيين ما يزالون يتنازعون على السلطة ، أو ما بقى لهم منها ، فى أورشليم ، وهى سلطة أخذ الزكاة من اليهود ، وادارة القضاء بينهم ، وتنفيذ الأحكام الشرعية فيهم ... أمارة كاريكاتورية تأخذ من اليهود الزكاة بيد وتصلبهم باليد الأخرى .

وانتهز هيرودس الادومى فرصة هذه المنازعات وزحف على المدينة سنة ٣٧ ق . م . يساعده القائد الرومانى سوسيوس ، فحاصراها وصبا عليها قذائف المنجنيق واقتحاها وقاما فيها بمذبحة رهيبة .

وافق القيصر الرومانى أغسطس على تعيين هيرودس على القدس «وكل بلاد اليهودية» أى النصف الجنوبى من فلسطين . فاهتم باعادة تخطيط المدينة وتدعيم اسوارها ، وتزويدها بأبراج حصينة للحراسة ، لاسيما فى النقطة الضعيفة استراتيجياً من المدينة وهى الغرب والشمال الغربى حيث أحياء القدس الحديثة الآن . فأقام فى هذه الجهة برجاً سماه برج «هيبيكوس» باسم واحد من اصدقائه قتل وهو يحارب فى صفوفه فى احدى المعارك ، وهذا البرج هو الذى يسمى خطأ الآن «برج داود» . وفى أقصى الزاوية الشمالية الغربية من السور بنى حصناً فى موضع حصن «البيرة» الذى اقيم بعد عودة اليهود من السبى ، وكان قائماً فى عهد المكابيين ثم تهدم ، وسماه هيرودس حسن «انطونيا» على اسم صديقه وحاميه انطونيو (صاحب كليوباترا) — أما تسمية «البيرة» فهى فارسية معناها القلعة ، ولم تعرفها اللغة العبرية الا تحت حكم الفرس ، وكان هذا الحصن مربعاً طول ضلعه نحو تسعين متراً ، وفى داخله قصر عليه سور مربع آخر ، تقوم عليه أربعة أبراج ، ثلاثة منها ارتفاعها خمسون ذراعاً ، والرابع ارتفاعه سبعون ذراعاً ، وهو البرج الشمالى الشرقى أقرب هذه الابراج إلى الهيكل ، ومن أعلى هذا البرج كان جنود الاحتلال الرومانى يراقبون ما يجرى داخل معبد اليهود ، الذى حظى من هيرودس أيضاً بالعناية فأعاد بناءه وزخرفته . وفى الجهة الجنوبية الشرقية استقر الملك المتهود «مونوباز» وأمه المتهودة أيضاً «هيلانه» ، وكانا يحكمان قبل تهودهما مقاطعة أديابين فى بلاد الاكراد ، شمال شرقى سوريا ثم تهودا ولجآ إلى أورشليم فبنيا إلى الجنوب من جبل صهيون قصوراً ومقابر فى غاية الاتقان .

كان اليهود فى أورشليم لا يكفون عن مناوشة الحامية الرومانية المعسكرة فى قلعة انطونيا . فأمر «أجريبا الأول» الموظفين الرومان بأحكام الرقابة على اليهود والتشدد فى معاملتهم ، ووصل الحقد إلى أقصاه بين الطرفين أثناء

دعوة السيد المسيح ، والفتنة التي احدثها الكهنوت اليهودى حينئذ ، وكان القيصر كليوديوس قد أمر – نكاية فى اليهـــــود – بوضع تمثال لنفسه فى الهيكل ، بقى فى مكانه إلى أن مات هذا القيصر مسموماً سنة ٥٤ بعد ميلاد المسيح .

الخراب الثانى – والاخير – لاورشليم

دأب اليهود على خلق المشاكل للرومان ، مشاكل ومضايقات صغيرة كانت متلاحقة ومفاجئة ، فقرر الامبراطور الرومانى فسبازيان القضاء عليهم ، وحل المشكلة كلها هذا الحل الجذرى الدامى ، فأرسل ابنه تيتوس على رأس جيش كبير للقيام بهذه المهمة ، وبعد مؤامرات كثيرة قام بها اليهود واستعملوا فيها كل شيء ، حتى النساء ، فى تليين عريكة تيتوس دون جدوى ، تم تخريب أورشليم فى ٨ ديسمبر سنة ٧٠ ميلادية واجلاء جميع اليهود عنها ، وهو «السبى الثانى» الذى ظلوا فيه من هذا التاريخ إلى سنة ١٩٤٨ عندما أعلن حاييم وايزمان قيام «اسرائيل» .

ولكن بالرغم من أن تيتوس قد بذل أقصى الجهد فى جعل عودة اليهود إلى سكنى القدس أمراً مستحيلا ، فان من بقى منهم فى فلسطين لم يكف عن التآمر ضد الرومان .

ايليا كابيتولينا ... لا اورشليم

وفى القرن الثانى الميلادى ، سنة ١٣٦ ، قام «بركوكبا» ، أحد نماذج الصهيونية القديمة ، بثورة مسلحة ضد الرومان ، وسجل عليهم ، رغم جيشهم الامبراطورى الجرار – انتصارات براقة فى البداية ، ولكن الامبراطور الرومانى ايليوس هدريان قام آخر الأمر باتمام ما بدأه تيتوس ، فحاصر ما كان بقى من القدس ، وهدم كل شيء فى المدينة ، ولم يترك فيها يهودياً واحداً ، وجاء إلى مكان الهيكل فأقام عليه معبداً لجوبيتر كبير آلهة الرومان ، ووضع فيه تمثالا لهذا الاله كالتمثال القائم فى معبد الكابيتول ، وقرر تغيير كل شيء فى هذه المدينة ، حتى اسمها ، الذى أصبح مكوناً من

اسمه هو واسم الكابيتول معبد جوبيتر الكبير ، فسماها «ايليا كابيتولينا» ومنع اليهود من دخولها ، وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك ، ثم سمح لهم بالمجيء اليها يوماً واحداً في السنة ، والوقوف على جدار ، بقى قائماً من السور فى الجزء الغربى من المدينة ، وهو الذى يسمى «حائط المبكى» ويسميه اليهود «الجدار الغربى» وظل حظر السكنى بالقدس قائماً على اليهود قروناً طوالا ، فقد ذكر ذلك يوزيبوس ، المؤرخ المسيحى الذى زار «ايليا» — القدس — سنة ١٣٢ ميلادية ، كما ذكره اليهود انفسهم فى تفاسيرهم القديمة «المدراش» (سفر الجامعة — قوهيلت ربا) .

دموع التماسيح على حائط المبكى

كان الاتقياء الطيبون من اليهود ، وفيهم اتقياء طيبون ، يقفون على «الجدار الغربى» باكين ، طالبين الرحمة من الله ، والمغفرة لذنوبهم وذنوب أسلافهم ، التى بسببها دمر الله ملكهم مرتين : على يد بختنصر البابلى وتيتوس الرومانى . أما كهنة السياسة الصهيونية عبر العصور فجعلوا هذا الحائط «مسمار جحا» ، يتخذونه منطلقاً لكل دعوة عنصرية جديدة . ولذلك زعم بعضهم أنه بقية من سور داود ، وقال آخرون أنه جزء من حائط سليمان ونسبه البعض إلى المكابين أو هيرودس ، وقد قام الاثريون الاسرائيليون بعد حرب يونيو ١٩٦٧ بعمل حفائر فى أساس الحائط ، فكان أقصى ما عثروا عليه ، فى الحجارة التى تحت الأرض ، آيتين من سفر النبى اشعيا محفورتين بخط يجعل نسبة هذه الحجارة لدواد أو سليمان مستحيلة . ويرجع العثور على هذا النص إلى الشهور السابقة لاحراق المسجد الأقصى ، ولأن الكشف لم يكن دسماً من الناحية السياسية كما يريد الصهاينة ، فقد وضعوه فى «قبر السكوت» كعادتهم فى كثير مما لا يريدون أن يعرفه العالم عنهم .

ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذا الحائط جزء من سور المعبد اليهودى وقد يرجع على أكثر تقدير إلى أيام هيرودس ، أى إلى فترة ميلاد المسيح . وتقضى اليه طريق طولها نحو ثلاثين متراً وعرضها أربعة أمتار (وقد نسف اليهود ذلك وعاثوا فيه منذ يونيه ٩٦٧) .

وارتفاع الحائط ثمانية عشر متراً عن سطح الأرض ، الستة أمتار الأولى منها مبنية بحجارة مستطيلة ضخمة مثل التى يعثر عليها فى أساسات السور ، يضاف اليها من فوق ١٤ سطراً من حجارة أصغر يبدو أنها قد علّى بها الحائط ابتداء من عصر متأخر جداً هو القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده وأساس السور المطمور تحت سطح الأرض عبارة عن ١٩ سطراً من الحجارة المستطيلة الضخمة ، ويمكن رؤية جزء من هذا الأساس من الكهف الملاصق للحائط من جهة الشمال ، أما بقية السور من هذه الجهة الغربية فقد اندثرت الا بعض النتوءات التى تبرز من مسافة لأخرى ، وهناك ١٢ متراً من الضلع الجنوبى للسور ما تزال بارزة ، وهى بقية العقد المقوس الذى كانت فوقه القنطرة من جبل صهيون إلى الهيكل ، والتقاليد اليهودية لا ترى البكاء سنة عند هذا الجزء ، مما يؤكد أن الأصل فى هذا البكاء انما كان على معبد لا مملكة ، وطلبا للمغفرة من الله لا للعون من الولايات المتحدة — ومع الزمن غلبت دموع التماسيح دموع الاتقياء .

وإذا كان المبكى أثرا يهودياً يرويه اليهود بدموعهم ، فهناك قبر فى الجنوب لحبر من أحبار اليهود الكبار هو الربى كلونيموس التلمودى يرجمه اليهود بالحجارة تنفيذاً لوصيته . وتقول أسطورته : ان طفلا مسيحياً وجد قتيلا ، واتهم المسيحيون اليهود بقتله لأخذ دمه والاستعانة به فى طقوس خبز الفصح حسب الاشاعة التى تتهمهم بعجن هذا الخبز بدم انسان غير يهودى فجاء الحاخام كلونيموس وقرأ ودعا على الجثة الهامدة ، فبعث الصبى حيا باذن الله ، ونطق باسم قاتله واذا به مسيحى ، فندم كلونيموس على معجزته التى قام بها لمن ليسوا أهلا لها فى نظره ، وكتب فى وصيته أنه يريد أن يعاقب نفسه على ذلك بأن يمنع من وضع شاهد باسمه على قبره ، وأن يرجمه من يمر بقبره لمدة مائة سنة ، واكراماً للرجل فبعض الناس يرجمه إلى اليوم .

القدس الشريف

ظلت «ايليا كابيتولينا» محرمة على اليهود الاستحابة نهار في السنة يذرفون فيها الدموع على حائط المبكى حتى ظهر الاسلام ، وأستولت جيوش عمر ابن الخطاب على القدس سنة ٦٣٧ ميلادية بقيادة خالد بن الوليد وأبى عبيدة عامر بن الجراح . وفى سنة ٦٣٧ ، والجيش العربى يطوف المدينة ولايدخلها فى انتظار قدوم الخليفة ، كان زعماء المسيحيين فى داخل المدينة ينتظرون أيضاً خليفة المسلمين ، ومعهم مشروع معاهدة تقضى بكل ما يريده العرب بشرط الابقاء على الحرية الدينية للمسيحيين ، واحترام المشاهد المسيحية المقدسة فى البلد ، واستمرار القرار الرومانى القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة . وقبل عمر الشروط كلها الا الشرط الأخير ، معتذراً بأن القرآن قد حدد ما لأهل الكتاب وما عليهم ، وليس فيه شىء يسمح بهذا ، ولكنه تعهد لمسيحيي القدس بألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن فى حاراتهم . ثم أراد أن يؤمن للحامية العربية مكاناً تعسكر فيه بالقدس فوجد أن سفح «صهيون» قد صار قذراً جداً — وقد أشرنا إلى أن وادى القمامات كان يلاصقه منذ أقدم العصور — فصعد إلى الهضبة التى كان اليهود يسمونها جبل «موريا» وأختط مسجداً بجانب الصخرة الشريفة ، التى كان النبي محمد ابان حياته قد أسرى به اليها ، فصلى عندها ، ودعا القرآن المكان باسم «المسجد الأقصى» ، ومن ثم عرج به فى القصة المعروفة المذكورة فى القرآن .

لم يجروء اليهود ، طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل خلفاء الدولة الأموية ، على الاستيطان بالقدس ، ثم سمح لهم بذلك فى أيام الخليفة عبد الملك ابن مروان ، الذى بنى المسجد الجامع وبنى قبة الصخرة عام سنة ٦٨٨ ، وكان فى فناء الحرم على أيامه عشرة من اليهود يقومون بأعمال الكنس والنظافة نظير اعفائهم من الجزية ، ذكر ذلك تاريخ مجير الدين المخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس .

وفى سنة ٧٠٥ تولى سليمان بن عبد الملك بن مروان ، فترك فى دمشق أخاه الأصغر وحضر إلى القدس وهو ينوى أن يجعلها عاصمة للخلافة الاسلامية ثم عدل ، وذكر مجير الدين فى تاريخه أن المكلفين على عهده بانارة المسجد الأقصى كانوا من الخدم اليهود ، إلى أن تولى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٠ — ٧٢٠) ففصل اليهود من هذه الأعمال وجعل خدم الحرم جميعاً من المسلمين .

وفى سنة ٩٦٩ . سقطت سوريا وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، وأستولوا على القدس فى عهد المعز لدين الله الذى كان مشهوراً بعطفه الشديد على الأقليات من أهل الكتاب وخصوصاً اليهود . فأزدهرت فى أيامه الطائفة اليهودية ، ولكن حفيده الحاكم بأمر الله (سنة ١٠١٠) ، قسا على المسيحيين واليهود وهدم بعض الأبنية المعظمة عندهم ، حتى أنه أراد ذات مرة أن يهدم كنيسة القيامة كما يروى مجير الدين فى كتابه فى التاريخ .

وفى أواخر يوليه سنة ١٠٩٩ دخل الصليبون القدس لأول مرة بقيادة الفرنسى «جوفروا» وأبادوا جميع المسلمين واليهود فى المدينة المقدسة وأحرقوا ديارهم ومقدساتهم ، وحرموا عليهم دخولها ، وإن كان الرحالة اليهودى الاندلسى «بنيامين التطيلى» يذكر فى رحلته التى زار فيها القدس سنة ١١٧٠ أنه وجد فيها قليلا من اليهود يقيمون تحت «برج داود» ويشتغلون صباغين بتصريح من الحاكم الصليبى لقاء مال يدفعونه له .

ويذكر رحالة يهودي آخر من الأندلس أيضاً هو يهودا الحريزى الأديب أنه زار القدس بعد أن استردها صلاح الدين الأيوبى من الصليبين (يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧) فسمع عنه أنه يكرم اليهود ويحسن معاملتهم ويشجعهم على الاقامة فيها .

وظل الأمر يتأرجح عنفاً وتسامحاً مع اليهود بين الصليبيين والمسلمين بحسب الظروف إلى أن تخلصت فلسطين للماليك ، وكان اليهود قد كثروا

فى القدس ، وبدأت بينهم تنظيمات سرية تفرض عليهم الاتاوات لصالح الطائفة ، وتوقع العقوبة — سراً — بمن يرفض دفع الاتاوة .

حدث مرة فى حكم السلطان الملك الأشرف قايتباى ، من المماليك البرجية (١٤٦٨ — ١٤٩٦) أن أحد اليهود رفض دفع هذه الاتاوة ، فوقع تحت التهديد والارهاب ، حتى أنه آثر الدخول فى الاسلام ، واغتاظت أمه من قسوة زعماء الطائفة عليه ، فأسلمت هى كذلك ، وأوقفت بيتها الواقع فى الحى اليهودى ليكون مسجداً للمسلمين ، وكان مجاوراً للمعبد . فلجأ المسلمون فى المدينة سنة ١٤٧٥ إلى المحكمة الشرعية بالقدس يطلبون اجلاء اليهود من مجاورة المسجد الجديد وازالة معبدهم . وأصدرت المحكمة حكمها فى صالحهم، ولكى تبين أن الحكم لابد أن يصدق عليه من المحكمة العليا فى القاهرة .. وفى انتظار التصديق قام المسلمون فعلا ببعض أعمال الهدم والازالة ، ولكن السلطات العليا بالقاهرة نقضت حكم المحكمة الشرعية بالقدس ، وأفتت بأنه لاضير بأن يقوم مسجد للاسلام فى حارة اليهود وبجوار معبدهم ، وأمرت باعادة بناء ما تهدم على نفقة المسلمين ، ذكر هذا أحد مشاهير أحبار اليهود الذين عاصروا تلك الأحداث ، وهو الربى عوبديا دى برطينورو فى رسالة له من القدس ، وكان معظم اليهود يسكنون فى حى خاص بهم على جبل صهيون بمعزل عن المسجد الأقصى وكنيسة القيامة .

فى نفس هذا القرن الخامس عشر الميلادى كان العرب قد طردوا من الأندلس، وكان الاسلام قد دخل أوربا من الشرق مع السلطان العثمانى محمد الثانى — الفاتح — الذى استولى على القسطنطينية ، ووضع بذلك نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) .

وطرد العرب من الأندلس جر معه جالية يهودية ضخمة كانت تعيش آمنة فى كنفهم ، وهى التى قامت بخدمة اللغة العبرية والدين الاسرائيلى

والحفاظ عليهما وتعميق دراستهما ووفد من هذه الجالية جمهور كبير للاستقرار فى القدس ، كما بدأ يفد من بيزنطة أيضاً عدد من اليهود لايستهان به.

وفى سنة ١٥١٦ انتهى حكم المماليك عندما سقطت القدس فى يد الجيش التركى فى عهد السلطان سليم الأول العثمانى ومن بعدها مصر أيضاً وبعد ذلك مباشرة كان السلطان سليمان القانونى العثمانى ١٥٢٠ — ١٥٦٦ هو الذى يحكم الامبراطورية الاسلامية الشاسعة وقد أمر باعادة بناء أسوار القدس الشريف على النحو الذى نعرفه الآن .

وبهذا السور الحالى سبعة أبواب :

١ — باب الخليل غرباً ، وهو الذى يسمونه أيضاً باب يافا ، وكان يسمى قديماً باب ابراهيم .

٢ — باب النبى داود جنوباً ، واسمه باب صهيون ، وهو على جبل صهيون ملاصق لقبور ملوك آل داود .

٣ — باب المغاربة جنوباً من منخفض الجبانه «التيروبويون» ويسمى أيضاً الباب الصغير لصغر حجمه نسبياً ، ومن الأثريين من يزعم أنه باب القمامة القديم ، والراجح أن باب القمامة كان إلى الجنوب أكثر ، فى أسفل الجبل ومن هذا الباب تخرج جنازات الموتى لتدفن على جبل الزيتون .

٤ — باب السباع شرقاً ، والعرب يسمونه باب ساباط والظاهر أن الكلمة تحريف يهوشا فاط واليهود كانوا يسمونه قديماً باب «يهوشا فاط» لأنه يطل على الوادى المسمى بهذا الاسم .

٥ — باب الزاهرة، شمالا ، وهو باب هيرودس ، وربما كان فى موضع «باب ساحة الجيش» القديم .

٦ — باب العمود ، فى الشمال الغربى ، ويسمونه باب دمشق ، واليهود تسميه باب شكيم «نابلس» .

٧ ـ الباب الجديد ، غربي باب العمود ، ويسمى باب عبد الحميد وهو أقرب الأبواب إلى كنيسة القيامة .

هذا عدا أبواب وبوابات داخل القدس نفسها مثل «باب حطة» الذى يصل اليه الداخل إلى القدس من باب الزاهرة ، وباب السلسلة القريب من المسجد الأقصى .

وبعد فهذه جولة فى تاريخ القدس تتبعنا فيها اليهود خاصة ، فوجدنا أن المدينة كانت مقدسة قبل داود بألف سنة ، من أيام الملك الفلسطينى ملكيصدق ، لدرجة أن سيدنا ابراهيم التمس منه الطعام والشراب ، وأن يباركه ببركة الله العلى ، ووجدنا أن فترة أواخر حكم داود وحكم سليمان وهى لا تعدو كلها ثلاثا وسبعين سنة : ٣٣ لداود ، ٤٠ لسليمان هى الفترة الوحيدة التى كانت المدينة والهيكل فيها مركزاً وعاصمة لليهود بقوة السلاح أولا وبالمسالمة والدبلوماسية ثانياً ، ووجدنا أنه بمجرد موت سليمان تقلصت سلطة القدس بأكثر من النصف ، إذ كانت دولة اسرائيل فى الشمال لا تعترف لا بداود ولا بسليمان ولا بخلفائهما ، لا فى الدين ولا فى السياسة . حتى جاء الأشوريون والبابليون ووضعوا حداً لكل هذا ، ومنذ ذالك الوقت كانت أورشليم رمزاً ، ولم يكن وجود اليهود فيها وجوداً مستقلا ، لا سياسياً ولا اقتصادياً ولا دولياً ، وانما كانت لهم فيها زوايا ومعابد لطقوسهم ، وكان يأتى اليها حجاجهم كما يذهب المصرى أو المغربى أو التركى للحج فى مكة المكرمة . ووجدنا أن العرب عندما دخلوا القدس الشريف بعد الاسلام كانت المدينة خالية من اليهود منذ خمسمائة سنة أو أكثر ومن كل أثر سياسى أو دينى لهم الا «مسمار جحا» الذى هو حائط المبكى ، وعلى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، كانت تحت الادارة الاسلامية « مدينة الله » بحق يجد فيها المسلم والمسيحى واليهودى صفاء النفس والسكينة الروحانية اللازمة للتأمل والعبادة .

ألف سنة قبل داود ، وألف وخمسمائة سنة بعد دواد ، والقدس مدينة الله . بل داود نفسه لم يكن يسميها الامدينة الله ، واليهود يعرفون ذلك جيداً ، ويعرفون أن التلمود كان يعتبرها «مدينة مملوكة لله» ، ولذلك حرمت شريعته أن يمتلك فيها الانسان بيتاً أو أرضاً أو بستاناً ، أو أن يسكن أحدا فى بيته بأجر ، ولكنهم عند اللزوم كثيراً مايسكتون جميع الأصوات حتى صوت داود وسليمان وأصوات الأنبياء ، وحتى صوت التلمود .

هيكل سليمان .. وهياكل اخرى

كيف كان الهيكل الذي بناه سليمان ؟ وكيف تم بناؤه ؟ هل بقي منه شيء غير تلك الشطحات الأدبية الاسطورية التي يغص بها الأدب اليهودي ، الديني منه والعلماني ؟ هل قامت على أنقاضه هياكل أخرى ؟ .

أسئلة هامة تستوقفنا كما استوقفت الباحثين منذ أقدم العصور . وسنقف عندها علنا نجد بصيصاً من نور ، يساعدنا على تبين بعض المعالم ، وعلى تصور البناء في هيئته الواقعية البعيدة عن تخيلات الحنين اليهودي الحالم ، وعن التلخيص العابر الخاطف الذي ذكرنا مثالا له من كتابة اليهودي الأمريكي المعاصر «لويس براون» .

جاء في الكتاب المقدس أن داود كان يريد أن يبني هيكلا للرب في أورشليم ، ولكن النبي «ناتان» أبلغه — من لدن الرب — بأن يترك هذا المشروع لابنه سليمان (صمويل الثاني٧) . لماذا ؟ ان داود نفسه ليشرح سبب ذلك لابنه سليمان شرحاً له دلالته ومغزاه ، حتى في العصر الحديث . وليسمع كهنة الصهيونية التوسعية في فلسطين الآن (اخبار الايام الأول ٢٢) : «وقال داود لسليمان يابني ، كان في خاطري أن أبني بيتاً لاسم الرب الهي ، فكان إلي كلام الرب قائلا : قد سفكت دماً كثيراً ، وقمت بحروب كبيرة فلن تبني بيتاً لاسمي ، لأنك سفكت دماء كثيرة أمامي على الأرض . وها هو ذا ابن يولد لك ، يكون رجل سلم ، أسلمه من جميع اعدائه الذين من حوله ، إذ سيكون اسمه سليمان ، وسأعطي سلاماً وهدوءاً لبني اسرائيل في أيامه وهو يبني لاسمي بيتاً» .

ومع ذلك فان داود أراد ، قبل موته ، أن يسجل معاونته الفعالة لابنه في اقامة الهيكل ، فأخذ بجهز المواد اللازمة للبناء ، وكان لليهود في عصره ما يزالون في بداوة بدائية يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة

أو علم من علوم الدنيا ، وسترى ان الاعتماد على الفنيين الأجانب كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب . جاء فى سفر أخبار الايام الأول — ٢٢ : «وأمر داود بجمع الأجانب الذين فى أرض اسرائيل ، فأتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله . وهيأ داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والأوصال ، ونحاساً كثيراً بلا وزن وخشب أرز لا يحصى ، لأن الصيدونيين والصوريين أتوا بخشب أرز كثير لداود» ثم أضاف داود وهو يخاطب ابنه فى نفس هذا الاصحاح قائلا : «وها أنذا فى مذلتى قد جهزت لبيت الرب مائة ألف وزنة من الذهب وألف ألف وزنة من الفضة ومن النحاس والحديد مالا وزن له لكثرته ، وجهزت أخشاباً وحجارة وأنت تزيد عليها . وعندك صناع كثيرون للعمل : نحاتون ، ونقاشو حجر وخشب ، وكل أستاذ فى كل حرفة» .

هذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وهذا الخشب والحديد والنحاس الذى يفوق الوزن والحصر ، وهؤلاء العمال المهرة والأساتذة الخبراء فى كل حرفة ، قد أورثهم داود لسليمان قبل أن يترك الدنيا ومن فيها ، فلننظر ماذا كان من أمر «بيت الرب» وبنائه .

أما مكان البناء فالاجماع منعقد ، بناء على عنعنات شفوية يقال انها متصلة متواترة على أنه الهضبة المسطحة التى تتوج جبل «موريا» — المكان الذى وجد فيه ابراهيم ، قبل سليمان بألف سنة ، الرجل الفلسطينى الأصيل «ملكيصدق» ، ملك أورشليم ، يعبد الله العلى ، ويقوم بقرى الضيوف فيقدم لابراهيم الخبز والنبيذ ، ثم يباركه «باسم الله العلى» أيضاً .

ظل هذا المكان فلسطينياً قحاً ، فى أيدى اليبوسيين ، رغم الضغط الاسرائيلى المتكرر حتى جاء داود ، فوجده ملكاً لفلاح فلسطينى يبوسى أسمه «أرونا» أو «أورنان» ، وقد جعله جرناً ، فاشتراه منه ، والظاهر أن اليبوسيين كانوا قد تعودوا من رذالات النهب والاغتصاب الاسرائيلى ما جعل «أرونا» يندهش عندما وجد داود يدفع له ثمن الجرن ، وكان قد

عرض عليه — اتقاء لشره — أن يأخذه بلا مقابل ، «فقال الملك لارونا : لا ، بل اشترى منك بثمن ، فلا أحرق القرابين للرب الهى مجاناً» . (صمويل الثانى ٢٤) .

أما عدد الصناع الذين اجتمعوا فى أورشليم لينفذوا لسليمان المشروع الذى أوصى به أبوه داود فضخم جداً يزيد على مائة وخمسين ألف عامل ، والهيكل بناء صغير حسب أوصافه التى وردت الينا (طوله ٣٢ متراً ، وعرضه ١١ متراً وارتفاعه ١٦٧ متراً بالتقريب) مما يدعونا إلى التساؤل : هل كانت كل مواد البناء التى أعدها داود ، وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين مخصصه للهيكل وحده ، أم أن الأمر على ما يذكر «لويس براون» من أن الهيكل لم يظفر من ذلك الا بالقدر الأقل بينما الجانب الأكبر قد خصص لمبان أخرى أقل اتصالا بتمجيد «الرب» ، منها القصر الملكى لسليمان ، وقصر زوجته ابنة فرعون ، والصروح البديعة ، والفيلات الانيقة ، التى أعدها لنسائه الكثيرات جداً ، والأبنية الحكومية المختلفة ، وحتى المعابد الوثنية التى اقيمت خصيصاً لمن رفضن التهود من النساء الاجنبيات اللاتى أحبهن سليمان (الملوك الأول ١١) .

مهما يكن من شىء فان العمال الذين جاءوا لتنفيذ المشروع كان معظمهم من الأجانب كما قلنا ، وينقسمون حسب ما جاء فى الاصحاح الخامس من سفر الملوك الأول إلى الفئات الآتية :

١ — ٣٠,٠٠٠ عامل لقطع الأخشاب يكونون ثلاث ترحيلات كل منها عشرة آلاف عامل ، تذهب إلى لبنان فتعمل شهراً ثم تعود إلى فلسطين فتمكث شهرين هما مدة الترحيلتين الأخريين ، بحيث تعمل كل واحدة من التراحيل الثلاث أربعة أشهر على أربع فترات فى السنة . وكان الخشب المقطوع يأتى من لبنان بحراً إلى يافا ، والمذكور منه نوعان هما الأرز والسرو ، وورد فى سفر اخبار الايام الثانى ٢/٨ اسم غامض لنوع ثالث ، ترجمه المترجمون بالصندل ، ومعروف أن الصندل لا ينبت فى لبنان ، ولعل المقصود بالكلمة

العبرية — وهى من غريب اللغة — خشب الساج ، وهو خشب شجر يميل إلى الحمرة ويستعمل فى النجارة ، (وقد اعتمدنا فى هذا التصحيح على على المعجم العبرى العربى «جامع الألفاظ» تأليف أبى سليمان داود بن ابراهيم الفاسى الذى يرجح إلى حوالى سنة ٩٥٠ م) .

٢ — ٧٠,٠٠٠ حمال

٣ — ٨٠,٠٠٠ حجار ، يهيئون حجارة البناء فى «محاجر سليمان» فى الطرف الشمالى من جبل الزيتون ، إلى أقصى الشرق من مدينة القدس .

٤ — ٣,٣٠٠ رؤساء تشغيل (عمال فنيون ، «اسطوات» ، ملاحظون) وعددهم فى سفر أخبار الأيام الثانى الاصحاح الثانى ، مختلف إذ هو ٣,٦٠٠

٥ — ٥٥٠ بناءون من صور وجبيل،وهما المدينتان الفينيقيتان المشهورتان فى العصور القديمة باتقان بناء الحصون والقلاع .

وفى ربيع السنة الرابعة من جلوس سليمان على العرش وضع الحجر الأساسى للمشروع بعد خمسمائة سنة من خروج بنى اسرائيل من مصر مع موسى ، وتم البناء بعد سبع سنين ، فى خريف السنة الحادية عشرة من ملك سليمان أيضاً .

يقول المؤرخ اليهودى اليونانى يوسفوس (تاريخ اليهود ، الجزء الثامن ، الفصل الثالث) : ان سليمان قد وصل بأساس الهيكل إلى عمق سحيق ، وكان هذا الأساس يتكون من مكعبات من حجر شديد الصلابة ، يمكن أن يتحمل بعد ارسائه فى أعماق الأرض كل ثقل المبنى القائم عليه ، والذى يزيد من ثقله كل التصميم الزخرفى الذى أعده له سليمان ، وهو تصميم يزن مثل وزن الهيكل نفسه . وكانت حجارة الأساس هذه بيضاء ، وكان طول الأساس ستين ذراعاً (٣١,٥ متر) وعرضه عشرين ذراعاً (١٠,٥) ، وهذه هى أبعاد الهيكل الظاهر فوق سطح الأرض حسب رواية الكتاب المقدس ،

أما عمق الأساس فكان ستين ذراعاً أيضاً (٣١,٥ متر (ومفهوم كلام يوسفوس أن الكتلة المحددة بهذه الأبعاد كانت كلها مصمته ، مملوءة بالمكعبات الحجرية الضخمة ، ولم تكن مجرد «سياج» يحيط بالأرض .

ويرجح كثير من الاثريين وفى مقدمتهم الأثرى الفرنسى «دى سولسى» فى كتابه «تاريخ الفن اليهودى» أن الهيكل الذى بناه سليمان كان فى داخل سور يحيط بكل جبل الهيكل ، بدليل أن الهيكل الذى بناه اليهود بعد عودتهم من السبى البابلى فى نفس المكان ، وبعد سليمان بنحو خمسمائة سنة أخرى ، كان يحيط به سور أيضاً ، وكذلك الهيكل الذى عمره هيرودس بعد ذلك بخمسمائة سنة أخرى ، ثم الحرم الاسلامى الشريف الذى قام أخيراً ،فى نفس المنطقة التى كان «ملكيصدق» يدعو فيها باسم الله العلى فى زمن ابراهيم. ويبدو أن السور الذى كان يحيط بمنطقة الهيكل على أيام سليمان ، كان مربعاً طول ضلعه مائة وثمانون متراً (فتكون مساحة ما يحيط به السور نحو ثمانية أفدنة الا ربعاً) . وبهذه المناسبة يذكر الأثرى الفرنسى «دى سولسى» مقاييس الحرم الاسلامى الشريف فى نفس المنطقة وفى العصر الحديث كما كما قاسها هو بنفسه ، وهى : الضلع الشرقى لسور الحرم وطوله ٣٨٤ متراً ، والضلع الجنوبى طوله ٢٢٥ متراً ، ثم يمتد الضلع الغربى بزاوية منفرجة وفى خط غير مستقيم ، بحيث يكون الضلع الشمالى من السور أطول بكثير من مقابله الجنوبى . وينبنى على ما ذكره «دى سولسى» أن تكون مساحة الحرم الشريف أكثر بكثير من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار سليمان ، أو نحميا ، أو هيرودس .

هناك أيضاً أمر يستحق الانتباه ، وهو أن الحرم الاسلامى الشريف مستطيل ، واتجاهه من الشمال إلى الجنوب (فى اتجاه القبلة بمكة المكرمة) ، أما معبد سليمان فهو مستطيل لكن اتجاهه من الغرب إلى الشرق (نحو الشمس) وهو الاتجاه العام فى المعابد القديمة فى بابل أو مصر أو غيرهما من أقطار الشرق الأدنى والأوسط . واذن فلا يمكن التسليم بسذاجة برأى من يدعون أن الحرم يقوم تماماً على ما كان سابقاً يسمى هيكل سليمان ، حتى لو سلمنا أن الهيكل

كان فى هذا الركن بالذات من الجبل ، وهذا لا دليل عليه الا العنعنات التى اتخذت فى نفوس البعض منزلة مقدسة لتكرارها عبر الأجيال . والذى يستفاد من أوثق النصوص — هو أن الهيكل كان يتضمن التفاصيل الآتية :

١ ـ قدس الأقداس :

غرفة مكعبة أبعادها طولا وعرضاً وارتفاعاً ١٠,٥ متر . وفيها ستار يقسمها قسمين ، ففى القسم الداخلى منها تابوت العهد ، وهو صندوق تحفظ فيه نسخة من توراة موسى مخطوطة على جلد أورق ، عن يمينها وشمالها تمثالان للكروبين يملآن بقية الفراغ . وأصل الكروبين فى عقيدة اليهود أنهما من الملائكة ، وكان اثنان منهما يحرسان أبواب الجنة بعد أن طرد منها آدم وحواء ، ثم انتقلت القصة فى الفولكلور الشرقى القديم ، فى بابل وأشور وبلاد الحيثيين وإيران وفينيقيا وغيرها فأصبح « الكروب » نوعاً من أبى الهول المجنح يحرس البناء الذى يوضع فيه ، وكان شكل التمثالين الحارسين يتخذ أسلوب الطراز الفنى للأمة والعصر ، وأغلب الظن أنه كان فى هيكل سليمان أشبه بأمثاله فى المعابد الفينيقية ، أى بأسلوب وسط بين الفن البابلى الأشورى فى العراق والفن الفرعونى فى مصر ، وربما كان فى هيكل هيرودس قد نفذ بشكل أقرب إلى الفن التجريدى ، دون تفاصيل واقعية احتراماً لنهى التوراة عن اتخاذ التماثيل المنحوتة ، فكان «الكروب» أو الملك الحارس يظهر بشكل كتلة وسطى يحف بها جناحان كبيران مدببان ، ولعله من هنا جاء الاعتقاد الشعبى عند الرومان فى أن اليهود يعبدون فى قدس الأقداس صنما على شكل رأس حمار : إذ بدا لهم جسم «الكروب» بين الجناحين كرأس حمار بين الاذنين الطويلتين ، إذا وضعنا فى الحسبان الفرق الشاسع بين ثقل الفن اليهودى وتخلفه ، وفخامة الفن الرومانى ودقته وتفوقه .

وأما النصف المفتوح من قدس الاقداس فيحتوى فى الوسط على المذبح الذهبى للقرابين ، وإلى يساره منضدة تحمل الشمعدان السباعى الذى يضاء

فى أثناء اقامة الطقوس — ويقال أنه كان فى هيكل سليمان يضاء باستمرار لا ينطفىء أبداً ، وإلى يمين المذبح الذهبى منضدة لخبز التقدمة الذى يدخل فى الطقوس اليهودية أيضاً .

٢ — البهو المقدس :

وهو المكان الخاص باجتماع الناس للعبادة واقامة الشعائر ، ويفصله عن قدس الأقداس باب ، وعلى جانبيه صفت مناضد لوضع المسارج والشموع

٣ — قاعة المدخل :

وهى أول مكان يلى الباب ، وليس بها أثاث دينى معين ، وهى التى يليها من الخارج باب الهيكل ، وكان عليه عمودان أحدهما عن اليمين باسم «ياكين» أحد أحفاد يعقوب من سبط شمعون ، والثانى عن اليسار باسم « بوعز » ، أحد أبطال سبط يهوذا القدماء . وعلى جانبى هذا الصحن الخارجى المكشوف الذى يقوم فيه العمودان أحواض لغسل الذبائح ،ومذبح فى الهواء الطلق لتصعيد القرابين التى تحرق بالنار من هذه الذبائح ، يصعد اليه بسلم من عدة درجات وفى زاويتى المبنى سلمان يوصلان إلى الطوابق العليا التى بها غرف الكهنة ومرافق الهيكل . وعن يسار المذبح الخارجى « بحر النحاس » وهو حوض نحاسى كبير يحمله اثنا عشر ثوراً من البرنز .

وهكذا يكون طول المبنى كله ٣١,٥ متراً وعرضه ١٠,٥ متراً ، وارتفاعه فيما عدا قدس الأقداس ١٥,٧٥ متراً ، بينما قدس الأقداس سقفه منخفض نسبياً فارتفاعه كما قلنا ١٠,٥ متراً .

وكان من الداخل مغطى بالنقوش المنحوته فى الحجر والخشب من ازهار ونباتات وكروبين وكما يقول لويس براون ، لم يكن المعبد لا فخما ولا ضخما الا فى أعين اليهود البسطاء الذين لم يكونوا قد وصلوا من الحضارة إلى درجة يطمحون معها فى انجازات معمارية كالتى كانت سائدة فى نفس العصر فى مصر الفرعونية أو بابل وأشور أو ايران أو الهند .

وقد بقى هذا الهيكل حتى خربه بختنصر فمحا أثره محواً تاماً فى القرن السادس قبل الميلاد . وربما دخلت حجارة من أنقاضه فى أبنية متأخرة ، ظن بعض الباحثين ، بحسن نية أو للمغالطة وتشويه التاريخ ، أنها بقايا من انجازات سليمان .

الهيكل الثانى

كان هم العائدين من السبى البابلى الذى دام سبعين سنة أن يبسطوا سلطانهم مرة أخرى على فلسطين ، وأن تقوم لهم دولة ، تحت وصاية «قورش» امبراطور ايران فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وأن تكون هذه الدولة قنطرة للتوسع العسكرى الفارسى فى الشرق الأوسط ، الذى انتهى باستيلاء قمبيز على مصر نفسها . وإذا كان السادة الفرس لم يعطوا اليهود «وطناً قومياً» الا بشروط معينة خلاصتها الولاء التام والتبعية المطلقة لسياستهم بخيرها وشرها فان اليهود ارادوا أن يعيدوا بناء أورشليم، وتشييد هيكل سليمان ، حتى تكون هذه الواجهة أمام الناس تعمية على التبعية التى رضخوا لها صاغرين . ولقد حاولوا جاهدين أن يبنوا الهيكل الثانى على نفس المخطط الذى بنى عليه الهيكل الأول ، هيكل سليمان ، وانتهى البناء فى عهد دارا الأول الفارسى .

كان الذين عادوا من السبى نحو أربعين ألف يهودى أو يزيدون قليلا ، وكان على رأسهم «يوشع بن يوصدق» و «زروبابل بن شلتئيل» ، فبدآ ببناء مذبح للمحرقات فى الهواء الطلق على جبل الهيكل الذى كان وقتها خراباً وفى اليوم الأول من الشهر السابع من عودة اليهود من بابل إلى فلسطين كانت الطقوس تقام أمام هذا المذبح ، ثم لما لحق «عزرا» و «نحميا» بالعائدين إلى فلسطين من اليهود بدأت أعمال البناء والتحصين وإقامة أسوار أورشليم تتخذ شكل الانجاز النشيط ، رغم بعض العقبات التى كانت تقيمها الحكومة الفارسية من حين لآخر ، ورغم مقاومة غير منظمة قام بها أمراء حوران وعمان والجزيرة العربية ، والفلسطينيين المتمركزين فى اشدود (سفر نحميا الاصحاح الرابع وما بعده) .

وهذا الهيكل الثانى أيضاً انتهى أمره بالدمار التام بعد اقامته بخمسة قرون على يد تيتوس الرومانى . يقول يوسفوس فى كتابه «حرب اليهود» (الجزء الخامس ، الفصل الرابع ، الفقرة الثالثة) : «وكان تيتوس كلما وجد الجنود الرومان قد فرغوا من قتل جميع الناس فى المنطقة التى يسيطرون عليها ، أمرهم أن يخربوا أورشليم ومعبدها وأن يقلبوها ظهراً على عقب ، فيما عدا الابراج العالية التى كان يحرص على بقائها كشواهد على ما قام به من التدمير» . وهكذا امحت معالم هذا الهيكل أيضاً الا بقايا نادرة ، مع ملاحظة أنه عند وصول تيتوس كان هيرودس ، قبله بنحو قرن من الزمان ، قد أدخل تعديلات وتغييرات على الهيكل الثانى ، وعلى تخطيط المدينة نفسها ، كانت وحدها ، وبدون هدم أو تدمير ، كفيلة بجعل الوصول إلى التخطيط المعمارى المبدئى للهيكل الثانى أمراً يكاد يكون مستحيلا ، بالرغم من كل المحاولات التى أراد الباحثون اليهود أن يخرجوا منها بمخطط معمارى دقيق مستمد من عنعنات التلمود ومنهم الأثرى اليهودى «أيز نشتاين» مثلا . وأما ماجاء من جعل الصخرة الشريفة هى نواة قدس الأقداس فقد بينا الشكوك القوية التى تحوم حول هذا ، وأولها ما ذكرناه من الاختلاف الشديد بين صخرة قدس الأقداس وصخرة المعراج النبوى المبارك من حيث الحجم والارتفاع عن الأرض .

وانطلاقاً من هذا المخطط التلمودى ، ومع الوصف الذى أورده المؤرخ يوسفوس وغيره ، نجدنا مضطرين إلى أن نسجل مرحلة ثالثة متطورة جداً من الهندسة الدينية اليهودية فى حالة معبد أورشليم ابان ظهور المسيح .

هيكل هيرودس

وقد استفاد بعمق من العمارة اليونانية الرومانية ، وكادت تختفى منه الملامح الدالة على أصله اليهودى تماماً ، وهذا الهيكل هو الذى دمره تيتوس ومحاه من الوجود سنة ٧٠ ميلادية ، وحائط المبكى كان على الأرجح جزءاً من جداره الغربى . واليهود يحرصون على تسميته حتى الآن « الجدار الغربى ».

هيكل جوبيتر كبير آلهة الرومان

على أثر الثورة التى قام بها فى أورشليم ضد الحكم الرومانى الزعيم اليهودى «بركوكبا» جاء الامبراطور هدريان (فى أوائل القرن الثانى الميلادى) وأزال كل شىء يهودى فى أورشليم حتى اسم المدينة كما قلنا ، وعلى انقاض الهيكل بنى معبداً رومانياً لكبير الالهة «جوبيتر» ، وأقام تمثالا لهذا الاله وآخر للآلهة فينوس ، وجعل هذا الصرح على جبل أورشليم أشبه بمعبد الكابيتول الواقع على أحد جبال روما السبعة ، ولذا أعطاه اسمه شخصياً «اليوس» واسم «الكابيتول» ، وحرم استعمال اسم أورشليم وأحل محلها الاسم الرومانى الذى صنعه هو «ايليا كابيتولينا» — حتى أصبح اسم أورشليم لفظاً تاريخياً يطلق فقط على المدينة التى كانت فى هذا المكان على عهد الملوك والانبياء من بنى اسرائيل ، وظلت المدينة تسمى «ايليا» ولا يسكنها اليهود حتى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى ، حيث كانت المنطقة الوثنية التى أنشأها هدريان قد خربت ، وجاء ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب فأنشأ مسجداً بسيطاً لجنده ، هو نواة الحرم الشريف والمسجد الأقصى ، بعد أن كان الاسلام قد كرس تلك البقعة المباركة ، بوحى قرآنى ، وبمعجزة الاسراء والمعراج المحيرة للاذهان .

تم ، بعون الله وتوفيقه ، طبع هذا الكتاب بالهيئة العامة للكتب والاجهزة العلمية ، مطبعة جامعة الاسكندرية
فى يوم الأحد ١٨ يناير ١٩٧٠

محمد يوسف البساطى
مدير المطبعة

